أولادنا

دافيد كوبر فيلد

عن : شارلز ديكنز
بقلم : عادل الغضبان



دار المعارف

دافيد كوبر فيلد

أولادنا

٢١

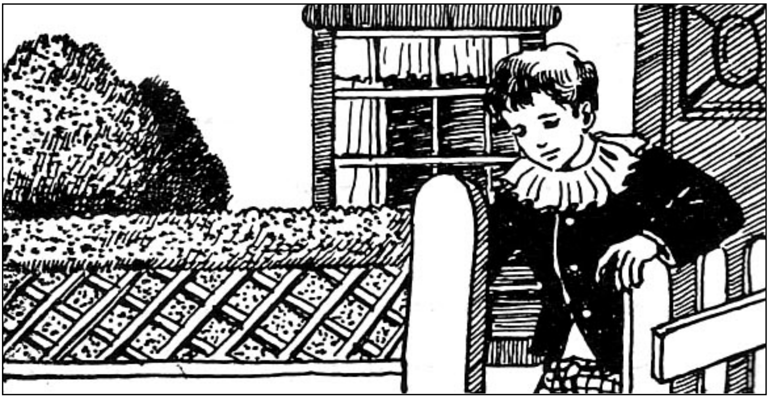
دافيد كوبر فيلد

عن : شارلز ديكنز
بقلم : عادل الغضبان

الطبعة السادسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

وُلِدْتُ يومَ جمعة ، ولمَّا انفتحتْ عيناى على نور هذا العالم ، كان والدى قد أغمضَ جفْنَيَة عنة منذ أكثَر من ستّة أشهر.وكان أجلُّ شخص فى أسْرتنا،عمَّةً لوالدى تدعى ((تروتوود)) ولكن أمّى كانت تسميّها ((بتسى)) ، وكانت هذه العمّة آنسةً عانساً تقيم فى إحدى القرى البعيدة عن مدينتنا.

و يغلُبُ على ظنى أنَّ والدى كان من هذة العمّة الرجلَ الحبيبَ المدلَّل،ولكنّها لم تغفر له قطّأنه تزوَّج أمّى ، و آفة ذلك الغضب و السّخْط أنّ أمّى كانت فى نظرها ، فتاةً صغيرةً لاتصلح للزّواج ، ولقد كان أبى ،

و عمره ضعف عمر والد تى ، خاثر الهمَّة ضعيف الصحة ، فتُوفِّى بعد سنةٍ من زواجه ، و قبل ستّة أشهرٍ من مولدى ، و لبث فى أثناء زواجه بعيداً عن عمتّى لا يزورهُا و لا تزورُه .

تلك كانت الحالُ فى صباحِ ذلك اليوم الذى هبطتُ فيه إلى هذه الحياة .

وقبل بضْع ساعاتٍ من مولدى ، شاهدتْ أمَّى سيَّدة تجتاز الحديقةَ إلى منزلنا ،فحدَّثتْها النفس أنّها الآنسة ((بيتسى)) و ما كانت قد عرَفتهْا من قبل ، و تجسَّم فيها ذلك الاعتقاد ، لمَّا رأتها تمشى بخطواتٍ حازمةٍ ، و هى شامخةُ الأنْف ، مرفوعةُ الرأس ،فمثلُ ذلك المظهر ، لا يمكن أن يكون إلا مظهر العمّة (بتسى)) .

و كان والدى قد رَوَى لوالدتى ، أنّ عمتّه ((بتسى)) لا تسلُك فى معاملتها النّاس ، مسلك بقيّة البشر ، و ثبت فى ذهن والدتى أنّ القادمة عليها هى العمة ((بتسى)) نفسها ، عندما رأتْها لا تتوجّه إلى الباب ، كما يفعل جميع الناس ، بل تنعطفُ إلى النافذة ، و تضَعُ أنفها على زُجاجها حتى انقلبَ أنفاً أبيضَ منبسطاً .

فنهضتْ أمّى ، و كانت شابّةً فتيّةً حييَّةً ، و اختبأت وراءَ مقعدٍ فى زاويةٍ من زوايا الغرفة ، و بعد أن أجالت العمة ((بتسى)) نظرها فى جوانب الغرفة من وراءِ زُجاج النافذة ، وقع بصرُها فى آخر الأمر على

أمَّى ، فأشارت إليها أن تفتحَ الباب لها ، شأنَ منْ تعوِّدَ الأمر و النّهى ، فاذعنتْ أمّى للإشارة ، و فتحت الباب ، فابتدرتها العمّة قائلة :

ــ((أعتقدُ أنك زوجة «دافيد كوبر فيلد».)) فقالت أمّى بصوتٍ خافت :

ــ((نعم يا سيد تى !)) فقالت السيّدة :

ــ((أنا الآنسة «تروتوود» ويخيَّل إلىّ أنكِ سمعت بى !)) فقالت أمّى :

ــ((نعم يا سيدّتى ، لقد سرّنى كثيراً أن أسمعَ عنك كريم الحديث .)) فقالت العمة متعجرفة :

ــ((إذن يسرّك اليوم أن ترينى .)) فاطرقتْ والد تى برآسها ، و رجَتها أن تدخلَ المنزل فدخلت ، و سارتا معاً إلى الغرفة التى تركتها والد تى منذ قليل ، و جلست كلٌّ منهما فى مقعدٍ ، و لزمتا الصّمت الطويل . و كانت العمّة تحاول أن تُخْمد نار السُّخط المتأجّجة فى صدرها ، أمّا أمّى فقد ضاق بها الصبر ، فا نهلّت الدموع من عينيها فقالت لها العمّة بصوت جَهْوَرِىّ :

ــ((وعلامَ البكاءِ ؟ اخْلعى عنى قُبَّعتَك أيَّتُها الطفلة حتى أتمكَّن من أن أراك .)) و ملأَ الخوفُ قلب أمّى ، فما أستطاعت إلاّ أن تلبّى هذا المطلبَ بيدٍ مرتجفة ، فانفلت معها شعرها الرَّسيل فقالت العمة :

ــ((آه يا إلهى ما أحْدَثَ سنك ! إنك حقّاً لطفلةٌ صغيرة .))

و الواقعُ أن أمّي كانت في مقتبل الشباب ، غير أن مظهرها كان يُوهم الرَّائى أنَّها أصغر سنَّاً مما هى عليه ، فطأطأت المسكينة رأسَها ، كأن حداثةَ سنِّها ذنبٌ ارتكبته ، و قالت و هى تَشْرقُ بالدمع ، إنها على صِغَرِ سنها قد أصبحت أرملة و سوف تُصْبِحُ أمَّاً . ثم خيَّم السكوت على المرأتين ، فرفعت أمّي بعد قليل نظرها ، فإذا العمّةُ جالسةٌ أمامَ الموقد جلْسَة المتذمّر ، و قد كشفَتْ عن ساقِها ، و شبكت يديها على رُكبْتيها ، و وضعت قدمَيَها فوق حافة الموقد . و على حين فجأة ، رفعت العمَّة رأسها و قالت :

ـ ((ممَّا لا شكَّ فيه أنك ستلدين أنثى ... نعم أنثى ما فى ذلك ريب ... نفسى تحدّ ثنى بأن المولود سيكون أنثى ... فاعلمى يا طفلتى ، أن هذه الأنثى ستكون منذ يوم ولادتها ...)) فتشجّعت أمّي و قاطعتها قائلة :

ـ ((أو أن هذا الغُلام ...)) فقالت العمة مُغْضبَة :

ـ ((قلتُ لك إن نفسى تحدّ ثنى بأن المولود سيكون أنثى ... لا تقاطعينى ... أريد أن أكون صديقةَ هذه الأنثى منذ يوم ولادتها... وسأكون را ئدَتها ... و أرجو أن تسميها « تروتوود كوبر فيلد «... هل كان «دافيد « رجلاً كريمَ الأخلاق معك أيتها الطفلة؟... و هل كنتما على وفاقٍ و وئام ؟ فقالت أمَّى :

ـ ((كنا من أسعد الناس ، وكان معى طيّبَ القلب كريمَ الخُلُق !))

ــ((لقد كنت يتيمةً أليس كذلك ؟))

ــ((نعم يا سيّد تى .))

ــ((و مربيَّة أطفال ؟)) فقالت والدتى فى سذاجةٍ و صراحة :

ــ((كنتُ مساعدةً لمربيّة أطفال ، فى منزلٍ كان المستر « كوبر فيلد » كثيرَ التردُّد عليه ، فطلب منى أن يتزوّجنى فقلبت و تزوّجنا.))

فقالت العمّة و نظرها لا يزال عالقاً بلَهَبِ النار فى الموقد :

ــ((يالكِ من مسكينة ! أتعرفين أن تقومى بعملٍ من الأعمال ؟))

فقالت أمّى :

ــ((كان المرحوم زوجى يعلّمنى ما أجْهَل ، و يساعد نى فيما يَشُقُّ علىّ ... و لكن الموت اختطفه منى ...)) و بدأتْ أمّى عند تذكار والدى ، تَزْفِرُ و تَشْهَق ، فقالت العمة فى صوتٍ رقيق :

ــ((حسن . حسن .))

و ازداد ألمُ المخاض على والدتى فانصرفت إلى غرفتها ، و جاء الطبيبُ بعد قليل يعُودُها و يُعْنَى بولادتها ، و لما فرغ من عمله ، لقيته العمة عند باب الغرفة ، و سألته و هى مكتوفةُ الذّراعين :

ــ((كيف حالُها ؟)) فقال الطبيب :

ــ((على خير حالٍ يمكن أن تكون عليه أمٌّ حديثةُ السنّ مثلها . و لا أعارضُ فى أن تَريَهْا إذا شئتِ .)) فقالت العمّة :

ــ((أسألكَ عنها هى كيف حالها ؟)) فقال الطبيب :

ــ((لقد حدَّثتك يا سيّد تى عن حالها ، و قلتُ لك إنها بخيرٍ و سلامة .)) فقالت العمّة متضايقة :

ــ((قلتُ لك : هى . هى . أى الطفلة المولودة .)) فقال الطبيب :

ــ((عُذْراً يا سيّدتى ، لقد كنتُ أظنّ أنك تعلمين ... إن المولود غُلامٌ ذَكَر .)) فلم تُحر العمّة جواباً ، بل تناولت قبعتها و لبستها و خرجت من المنزل إلى غير رَجعْة .

و ها أنذا أقصّ قصّة حياتى ، فإذا رجعتُ بالذاكرة إلى أيام طفولتى ، بدت لى شخصيتان واضحتا المعالم كُلَّ الوضوح ، إحدهما أمّى بشعرها الجميل ، و شبابها الغَضّ ، و ثانيتهما خادمتُنا ((بيجوتى)) بعينيها السوداوين و خَدَّ يْها الأحمرين و ذراعيها العَبْلَتَيَن . و يخيّل إلىّ عند هذه الذاكرة ، أ نى أرى أمّى و الخادمة تداعبانى معاً ، و أ تذكّر إصْبع ((بيجوتى)) المملوء بثقوب الإبرة ، و هو ممدود إلىّ ليساعدنى على المشى .

و إنى لأتذكّر أشياءَ أخرى من طفولتى : فهناك منزلنا و الحديقة و بُرْج الحمام الخالى من الحمام ، و مأوى للكلاب و ليس فيه كلب واحد ، و عددٌ من الدَّجاج تَذْرَع صَحْنَ الدار ، و ديكٌ لا يألو ينظر إلىّ و يقفز من موضع إلى موضع ... و هناك مطبخ ((بيجوتى)) و أبْهاءُ المنزل ، و لا سيَّما البَهْو الكبير الذى كنا أنا و أمّى و ((بيجوتى)) نقضى فى سهراتِنا ،



فما كانت ((بيجوتى)) تفارقنا عندما نكون وحَدْنا ، و تكون هى قد فرغت من عملها أو تطريزها . و هناك المقاعدُ الخاصة بنا فى الكنيسة ، قامت إلى جانب نافذة نستطيع أن نرى منها منزلنا ، و كانت ((بيجوتى)) كثيرة التطلُّع منها إلى منزلنا ، لتطمئنَّ على أنه ما أحْرِق و لا سُرِق فى أثناء غيابنا عنه .

و أَضيفوا إلى هذه الذكَّرْيات ما كنتُ أشعر به فى طفولتى من سلطان ((بيجوتى)) علىّ وعلى أمّى ، فما كنّا نخالف لها رأياً و لا نصيحة .

و ذاتَ مساء كنت أنا و ((بيجوتى)) وحدنا فى الغرفة ، وكنّا جالسَيْن أمام الموقد أقرأ لها قصةً من قصص التّماسيح ، و كان النُّعاس قد أخذ يُداعب جفونى مداعبةً ثقلية ، و لكنى كنت أغالبه انتظاراً لعودة وا لدتى حتى أحيّيها قبل أن أنام ، و كانت والد تى تتناول العشاء عند أحد الجيران ، و لست أدرى بأى سبب من الأسباب توهّمتْ ((بيجوتى)) و هى تستمع إلىّ و تخيطُ بعض الملابس أن التماسيح كانت صنفاً من الخضر ، و كلما بدأ النُّعاس يغلبُنى على أمرى ، كانت تساعدنى على طرده و تصيح بى قائلة :

ــ((اقرأ لى بعضَ صفحاتٍ أخرى من قصّة التماسيح ، فما أشْوقَنَى إلى معرفة أى صِنْفٍ هى !)) فأستمر فى القرأة . . . و بُعَيْدَ الساعة العاشرة سمعنا بابَ الحديقة يُطرق ، فخففنا معاً إلى فَتْحه ، و كان الطّارق وا لدتى و قد عادت فى صُحبْة رجلٍ جاء يوصلها إلى المنزل ، و تَبَيَّنْتُهُ فإذا هو الرجل

الذى زارنا يوم الأحد الماضى ، فانْثَنَى يداعب خدّى ، و لكنّى نفرت من صوته و شكله و لا أدرى لماذا . و سمعتُ والدتى تشكره على عنَائه باصطحابها إلى المنزل و سمعته يقول لى :

ــ((ألا تحيَّينى يا عزيزى تحيَّة المساء ؟)) فقلت :

ــ((عِمْ مساءً يا سيَّدى .)) فقال و هو يضحك :

ــ((هات يدَك و صافِحنْى و لنكُنْ صديقَيْن .)) فمددتُ يدى و تصا فحنا و انصرف . و تكررت زَوراتُ هذا الرجل لنا ، و ما كنتُ أزدادُ إلا نفوراً منه دون أن أستطيعَ إدراكَ سبب ذلك النّفور . و فى أمسيةٍ من الأماسى ، كانت والد تى قد خرجت كعادتها تتناول العشاء عند أحد الجيران ، و كنتُ أنا و ((بيجوتى)) نقضى الوقت معاً فقالت لى :

ــ((أتريدُ يا عزيزى أن تصحبنى لنقضى أسبوعين فى ضيافةِ شقيقى ؟)) فقلت :

ــ((و هل شقيقُك رجلٌ طيب القلب لطيفُ المعْشَر ؟)) فقالت و قد رفعتْ يدها إلى السمّاء مُستْشهدَةً بها :

ــ((إنه يفيض رقّةً و عذوبةَ نَفْس ... ثم لا تَنْس أن القرية التى يسكنها ، تقَعُ عند شا طئ البحر فهناك السُّفُن و المراكب و صيَّادو السمك ، و هناك أيضاً «شام « ابن شقيقى ، و سوف يسرُّه أن تصطحبا و تلعبا معاً .)) فأغرانى برنامجُ تلك الزيّارة فقلتُ لها :

ــ((إنى أقْبَلُ أن أقوم بتلك الرحلة عن طيبِ خاطر ، و لكن هل توافق أمّى عليها ؟)) فقالت :

ــ((أنا كفيلةٌ برضاها ، و لا سيَّما أنها أيضاً ستقضى أسبوعين فى ضيافة إحدى صديقتها فى بلدة قريبة)) .

و رضيتْ أمَّى و حُدِّد موعدُ السفر ، فرحلتُ أنا و ((بيجوتى)) فى الموعد المضروب ، مستقِّلين إحدى مركبات الأجرة ، فلم نكَدْ نصِلُ إلى القرية حتى رأينا ((شام)) ابن شقيقها واقفاً عند شاطئ البحر ينتظرنا ، و هو فتًى يكبرنى سنّاً غير أن نظراتِه و قسماتِ وجهه تدُلُّ على سذاجة الأطفال ، فحملنى على ظهره ، و حمل بإحدى يديه حقيبتى كأنَّ الصّداقة موطَّدَةٌ أركا نُها بيننا منذ زمنٍ قديم ، و تبعتنا ((بيجوتى)) حاملة حقيبتها و سَلّة الزاد ، فسمعته بعد قليلٍ يقول لى :

ــ((هو ذا مسكننا .)) فأجَلْتُ طَرْفى فى أنحاء المكان الذى وصلنا إليه ، فلم أجد مسكناً من المساكن ، اللَّهمَّ إلا مركباً صغيراً غارقاً عند رمال الشاطئ ، و محلَّلاً بألواحٍ من التَّنَك ، فقلت له :

ــ((أهذا الذى نراهُ أشبهَ بسفينة ؟)) فقال :

ــ((هو ذاك .))

ولو كان المسكنُ ا لذى سننزل فيه قصراً من قصور الأساطير ، لما سرِرْتُ به سرورى بتلك السفينة الغارقةِ التى سآوى إليها ، فقد تمثّلْتُها

سفينةً عظيمة ، مَخَرتْ عبُاب الماء أياماً و ليالىَ ، ثم رماها القدر إلى الرمال لتستقرّ عليها ، و تكون مأوى مدة أسبوعين ، و سرَّنى كذلك أن أشمَّ فى هذا المسكن رائحةَ السّمك ، و لقد علمتُ من ((بيجوتى)) أن شقيقها يصطاد السمك و يتاجر به ، فلا عجب أن كانت فى تلك السفينة أو فى ذلك المآوى كميات منه .

و كان فى استقبالنا عند ذلك المسكن ، امرأة مهذّبة ، تلبس رداءً أبيضَ ، و قد وقفت إلى جانبها صبيةً صغيرة جميلة ، كانت تتحلَّى بعقدٍ من اللؤلؤ الأزرق . فجلسنا فى الحال إلى المائدة نتناول طعام الغذاء، ثم أقبل علينا رجلٌ طويلُ الشَّعَر ، ساذجُ النَّظَر ، فإذا هو السيد ((بيجوتى)) أى شقيق خادمتنا ((بيجوتى)) ، فحيانا و حيَّيْناه ، ثم تناولنا بعد العصر الشاى و اجتمعنا معاً فى المساء ، نَسْمُر و نتحدّث فقلت لربّ المنزل على سبيل الدُّعابة :

ــ((يا سيد «بيجوتى» !)) فقال :

ــ((نعم يا عزيزى .)) فقلت :

ــ((ألانك تعيش فى ضَرْبٍ من سفينةِ نوح ، أطلقتَ على ابنك اسم «شام» ؟)) فرأى السيد ((بيجوتى)) أن سؤالى عميقُ المعنى ، فتجاوز عن عمقة و قال :

ــ((لستُ أنا الذى سَمَّيْته بهذا الاسم و إ نما هو أ بوه .)) فقلت :

ــ((حَسِبْتُه ابنك يا سيّدى .)) فقال :
ــ((هو ابن شقيقى «جو» .)) فقلت بعد صمتٍ قليل :
ــ((أمات أبوه ؟)) فقال :
ــ((مات غَرَقاً !)) و دهشت من أن لا يكون ((بيجوتى)) هذا والد الفتى ((شام)) و قلت فى نفسى لعلّ صِلات القُرْبَى بين الحاضرين هى غيرُ ما يبدو لى ، فشئت أن أستوضح الأمر ، فقلت للسيد ((بيجوتى)) و أنا أنظر إلى الصبية الجميلة صاحبة العقد الأزرق :
ــ((و « أميلى « الصغيرة ؟ هى لاشك ابنتك يا سيد « بيجوتى « ؟))
ــ((كلا يا عزيزى ! إنها ابنة أحد أنسبائى .)) فسكتُّ قليلا ثم سألته :
((أمات أبوها أيضا ؟)) فقال :
ــ((مات غَرَقاً))
شعرتُ بثقل ذلك الحديث ، و لكنَّنى صَمَّمْت أن أذهب فيه إلى النهاية فقلت :
ــ((ألك أبناء ياسيد «بيجوتى» ؟)) فقال ضاحكاً :
ــ ((كلاّ يا سيدى فأنا رجلٌ أعْزَب .)) فصحت فيه مدهوشاً ، و قلت و أنا أشير إلى المرأة ذات الرداء الأبيض :
ــ((و هذه من تكون إذن ؟)) فقال :

ـ((إنها السيدة «جود» .))

وهنا أخذتْ ((بيجوتى)) أى صاحبتى الخادمة ((بيجوتى)) تغمزنى بعينيها ، و تطلب إلى أن أكفَّ عن مثل هذه الأسئلة ، فأذعنتُ لغمزا تها ، و عندما أويت إ لى فراشى أ فهمتنى ((بيجوتى)) أن هذه السيدة هى ارملة بحّار كان شريك السيّد ((بيجوتى)) فى امتلاك أحد القوارب ، فمات و لم يترك لها مورداً تعيش منه ، فكفل معاشها السيد ((بيجوتى)) و إن لم يكن على يُسْر ورخَاء ، فأكبرتُ فى نفسى مأثُرَةَ الرجل ، و أثنيت على أريحَّيته .

و فى الصّباح ، ذهبت مع ((أميلى)) فاتتى الصغيرة نجرى معاً على رمال الشاطئ ، و نجمع منه الأصداف . و على هذه الوتيرة من المرح و السرور ، قضيتُ الأسبوعين ، ثم قفلتُ راجعاً مع ((بيجوتى)) الخادمة إلى مدينتنا و منزلنا .





٢

شعرتُ و نحن عائدان إلى مدينتنا ، أن ((بيجوتى)) يخالجها شئٌ كثيرٌ من الحَرَج ، فلم أفهم سببه ، فلم وصلنا إلى المنزل انفتح لنا البابُ ضاحكاً باكياً ، و ضاق صدرى لمّا وجدت خادمةً غريبة تستقبلنا ، و قد كنتُ أرجو أن أرى أمى تخفُّ إلى استقبالنا ، فصحتُ فى ((بيجوتى)) :

ــ((ما هذا يا «بيجوتى» ألَّا تعُدْ أمّى من رحلتها ؟))

ــ((بَلَى عادتْ يا سيد «دافيد» ... انتظرْ قليلاً فأخْبِرَك .))

و سارتْ بى إلى المطبخ ، و هى تتظاهر بالمرَح و الغِبْطة ، فقلت لها :

ــ((لماذا أدخلتنى إلى المطبخ ؟ أين أمّى ؟ لماذا لم تستقبلنا عند الباب ...

أأصابها مكروه؟ أماتت هى أيضا ؟)) فقالت ((بيجوتى)) متلعثمة :
ــ((ياسيد «دافيد» ... كان علىَّ ... أجل كان علىَّ أن أقول لك... أن أقول لك قبل اليوم ... و لكنَّنى لم أجد الفرصة مُواتية... كان علىّ أن أقول لك إن لك اليوم والداً.)) فارتجفتْ مفاصلى ، وامتُقْع لونى ، و خُيَّل إ لىَّ أنَّ ريحاً من قبر وا لدى قد لفحتْ وجهى وأن الأموات قد بُعثُوا من قبورهم . فقالت لى ((بيجوتى)) :
ــ((والداً آخر .)) فقلت مدهوشاً :
ــ((والداً آخر ؟ !)) فقالت ((بيجوتى)) و قد غصَّتْ بالكلام :
ــ((تعالَ معى لتراه .)) فقلتُ لها :
ــ((لا أريدُ أن أراه .)) فقالت متلطَّفة :
ــ((و أمّك ؟ ألا تريد أن تراها .))

و جذبتنى من يدى ، و دخلنا البهْو الكبير ، فسارعت والد تى إلىَّ تقبَّلنى فشعرتُ أن فى مسارعتها إلىَّ شيئاً من الخجل يُعرْقل خطواتها ، و رأيت هناك السيّد ((مردستون)) و هو السيد الذى كان قد صحب أمّى ذاتَ ليلة إلى المنزل ، فخَفَّ هو أيضاً إلىَّ و قال :
ــ((كيف حالُك يا عزيزى .)) فصافحته ثم خرجت من البَهْو إلى غرفتى ، فإذا هى غير غرفتى القديمة ، ثم جُلتُ فى أنحاء المنزل والحديقة فوجدتُ كل شئ قد تغيّر فيهما ، حتى مأوى الكلاب الخالى ففيه اليومَ

كلبٌ ضخم أسود ، استقبلني بنباح شديد ، وكاد يهجم عليّ ويمزّقني .

و يعلمُ اللّه كم بكيتُ عندما خًلوت بنفسى فى فراشى ، و كم بلّلْتُ وسادتى بالدَّمع ا لسَّخين . ولما استيقظتُ فى الصباح ، رأيت أمّى منحنيةً على سريرى ، و إلى جوارها ((بيجوتى)) لا تُبْدِى حَراكاً ثم سمعتُ أمى تقول لى و هى تُمسِّد شعر رأسى :

ـــ((" دافيد " يا ولدى الحبيب ما بالك ؟))

و عجبتُ فى قرارة نفسى كيف تسألنى أمّى مثل هذا السؤال، فاستدرت إلى جانبى آلاخر لكيلا تلحظ اضطراب شفتىّ ، فتعلمَ من اضطرا بهما ما يخالج قلبى من شُعور الألم . و بينما أنا على هذه الحال، شعرتُ بيدٍ أخرى لا هى يدُ أمّى و لا يد ((بيجوتى)) و إنما هى يد السيد ((مردستون)) تجذب إليها ذراعى ، و يقول صاحبُها لوالد تى :

ـــ((يا عزيزتى "كلارا" ما معنى هذا ؟ أنسيتِ نصيحتى ؟ عامليه فى شئٍ من الحزم و الصرامة .))

وكأنّ والدتى لم تستطع أن تأخذ بنصيحته ، فخرجت هى و((بيجوتى)) من الغرفة ، و بقيت وجهاً لوجه مع السيد ((مردستون)) فقال لى :

ـــ((اسمع يا "دافيد" ! أتعلمُ ماذا أفعل عندما أروِّض حصاناً أو كلباً ؟)) فقلت :

ـــ((لا . لستُ أعلم .)) فقال :

ـــ((أشْبِعُه ضرباً ... أفهمت ؟ فانهض إذن و اغسل وجهك و انزل

معى إلى البَهْو .)) فامتثلتُ لأمرهُ مكْرَهاً لا أعِى ، و لما نزلنا إلى البهو قال لأمّى :

ــ((يا عزيزتى "كلارا" أعتقد أنه لن يضايقك بعد الآن ، ففى استطاعتنا إصلاح خلقه السّئ.))

و لو أنّ هذا السّيد أفهمنى واقعة الحال ، و استعمل معى قليلاً من الرقّة و اللطف لكان أسرنى مدى الحياة ، و لكنه شاء أن يستخدم قوتّه و سلطانه فى تأديبى ، و أن يُكْرِهنى على طاعته و لو على سبيل المَلَق و الرياء .

و فى مساء ذلك اليوم ،سمعنا صوتَ عجلاتِ مركبة تقف عند باب الحديقة و تنزل منها الآنسة ((مردستون)) شقيقة هذا ا لسيد فرأيتها تشبهه فى سواد شعرها و قسوة نظرها ، و بعد أن نزلت من المركبة نقل الحوذىّ إلى المنزل حقيبتين لها كُتِبَ اسمها فوقهما بأحرفٍ من نحاس ، فلما فرغت و فرغنا من التحيات ، التفتت إلىّ و قالت تخاطب أمّى :

ــ((أهذا ابنك يا نسيبتى ؟)) فقالت أمّى :

ــ((نعم .)) فقالت :

ــ((إنى لا أحبّ ا لصبيان .))

فبلعتُ هذه التحية الكريمة من هذه الآنسة الزائرة ، و لكنها لم تكن زائرة بل جاءت تقيم معنا ، و بعد زمن وجيز استولت على جميع المفاتيح فى الدار ، و أصبحت فيها الآمرة الناهية على رضًى من أمى و طَواعية .

و رأى القوم قبل أن يبعثونى إلى المدرسة ، أن يُعْنَوا بتعليمى فى البيت ، فكان السيد ((مردستون)) و شقيقته و أمى ، يحضرون الدروس التى يلقنى إياها المعلم فى جو رهيب يملأنى ذعراً و رعباً ، فأين منه ذلك الجوّ البد يع الذى تلقيتُ فيه د روسى الأولى ، و كنت أقرأ فيه لخادمتنا ((بيجوتى)) قصّة التماسيح ؟ و كانت أمى كلما أغلق علىّ الجواب عن سؤالٍ من أسئلة المعلم ، و شاءت أن تساعد نى فى اقتناص الجواب ، هجم السيّد و شقيقته عليها هجوم الذئب الضارى و أوصياها باستخدام القَسْوة ، و إلا نشأتُ جاهلاً سئ الخُلُق ، و كان يتبع ذلك بعض صَفَعات يكيلُ لى إياها السّيد ((مردستون)) أو شقيقته ، و أمى صامتةٌ صَمْت الأموات ، تعلو وجنتيها حمرةُ الغضب السَّاكت . و على مثل هذا الجحيم كنتُ أقضى ساعات الدرس .

و ازداد السّيد ((مردستون)) وشقيقته صَرامة فمنعانى أن أصحب الأطفال وأن ألعب معهم ، زاعمين أنهما لا يريدان أن يرميا بى إلى جَوْقة من الأفاعى لئلا تفسد أخلاقى . و بقيتُ على هذا النظام مدة ستة أشهر تحوّل فيها مَرَحى و انطلاقى إلى العبوس و التضجُّر و الكآبة .

و من حسن حظّى أن كانت غرفة المرحوم والدى تجاور غرفتى ، فأصبحت أ تسلّل إليها ، و أقضى فيها وقتاً غير قصير فى مطالعة الكتب الموجودة فيها ، وكان يستهوينى منها على الأخصّ كتب الرحلات ، فأتيت

عليها كلها ، و كنت أتخيَّلُ نفسى و أنا أقرأ بعض المغامرات فيها ، أنى قا ئدُ سفينة ، وأن على القائد إذا غرقت سفينته أن يكون آخر من يغرق أو آخر من ينجو اعتزازاً بكرامته و عزّة نفسه ، أمّا أنا فكنت قد فقدتُ تلك الكرامة و العزّة فى ظلال من يريد أن يسلبنى شخصيتى ، و يفرض علىّ الطاعة العمياء ، و يد خل فى روع أمى أنى ولدٌ شاذُّ الأخلاق سيِّئ الطِّباع .

و جاء اليوم الذى قرّر فيه القوم أن يُرْسلونى إلى مدرسة من مدارس ((لندن)) ، فأوصلنى السيد ((مردستون)) و شقيقته إلى المركبة ، دون أن أودّع أمى و حرمَانى كذلك أن أحيى ((بيجوتى)) فسار بى الحوذى ينتهب جواده الأرض انتهاباً ، فما كادت المركبة تسير بى نحو نصف ميل ، حتى وقفتْ فجأة ، فتطلَّعْتُ حولى لأعرف سبب ذلك الوقوف المفاجئ ، فلشدّ ما دهشتُ عندما رأيت ((بيجوتى)) تخرج من بعض الأسوار ، و تصعد إلى المركبة ، و تُوسعنى تقبيلاً ، ثم تُخْرِج من جيبها الطويل كيساً مملوءاً بالحلوى فتدفعه إلىّ و تردفه بكيس صغير من النقود ، تضعه بين يدى ، ثم تعاود تقبيلى و تنزل من المركبة دون أن تَنْبِس بِبِنْت شَفَة .

وصلنا إلى ((لندن)) فقاد نى الحوذى إلى فندق لا أذكر أيسمَّى ((الثور الأزرق)) أم ((القنفد الأزرق)) و كلُّ ما أذكره عنه أنه اسم لحيوانٍ أزرق ، و كان فى الفندق رجل فى انتظارى فأقبل علىّ و قال :

ــ((أأنت التلميذ الجديد ؟)) فقلت له :

ــ((نعم يا سيدى .)) فقال :

ــ((أنا أستاذ من أساتذة معهد "سالم" الذى تقصده .))

فتهيَّبْت هذا الرجل العالم وكان اسمه ((مل)) ، و سرتُ معه صامتاً ، حتى بلغنا المعهد ، فاستقبلنَا عند الباب رجل بَدِينٌ كريهُ الوجه حليقُ الرأس ضخم العُنُق ، كأنه عُنُقُ ثور ، و كان ذا ساقٍ من خشب ، فأدار نظره فىّ عُلْواً وسفلاً فلم تَطُلْ تلك النظرات لضآلة جسمى ، ثم قادنى الرجل إلى قاعة الدرس ، وكانت خاوية خالية فسألته عن التلاميذ فعلمت أنهم فى عطلة . و استمرَّ يقود نى حتى بلغ بى إلى مِنْضَدة عليها لافتةٌ من الورق المقوَّى كتب عليها هذه العبارة : ((حذارِ إنه يَعَضُّ)) فتولانى الجزَع ، و صعدت فوق المنضدة ظنَّاً منى أن فى داخلها كلباً من الكلاب .

وكان الأستاذ ((مل)) قد لحق بنا ، فسألنى ماذا أفعل فوق المِنْضَدة فقلت :

ــ((عفوك يا سيّدى ، إ نى أفتّش عن الكلب .)) فقال :

ــ((و أىّ كلبٍ تفتّش عنه ؟)) فقلت :

ــ((الكلب العَضُوض .))

و أشرت إلى العبارة المكتوبة على اللاَّفتة الموضوعة فوق المنضدة، فقال لى بلهجةٍ خطيرة :

ــ((لا يا "كوبر فيلد " إ نه ليس كلباً ، إنما هو غلامٌ صغير . لقد أمرونى أن أربط هذه اللافتة على ظهرك . و إ نى مضطرٌّ إلى تنفيذ الأمر على مَضَض منَّى .))



فأنزلنى من المنضدة ، و ربط اللافتة إلى ظهرى ، ثم قادنى الرجل ذو الساق الخشبية إلى ناظر المدرسة و كان رجلاً أقرب إلى الوحوش منه إلى بنى الإنسان ، فحدَجَنى بنظرةٍ قاسية ، و قال لى و هو يفرك أذنى :

ــ((لى الشرف أن أعرف زوجَ والدتك السيد "مردستون" إنه رجلٌ حازمٌ عزيزُ النفس ، و كلانا يعرف الآخر تمام المعرفة ، أفتعرفنى أنت ؟)) فقلت و أنا أتألم :

ــ((لمَّا أشرُفْ يا سيّدى بمعرفتك .)) فقال وقد ترك أذنى :

ــ((سوف تعرفنى ... سوف تعرف أنى رجل من التَّتَر ... و لن أتسامح أ بداً فى أمرٍ آمرُ به و أنهى عنه .)) فقلت و قد هبَّتْ بى روحُ الشجاعة :

ــ((نعم يا سيّدى ، و لكن ناشدتك اللّه إلاّ أمرتَ برفع هذه اللافتة عن ظهرى ... إنى نادمٌ عمَّا بدر منى نحو زوج وا لدتى... فأتوسَّل إليك أن تأمر برفع هذه اللافتة قبل أن يعود التلاميذ ...))

فزمجر زمجرة الوحوش . وهجم علىَّ يريد أن يفترسنى أو يريد تخويفى ، فمضى بى ذو الساق الخشبية إلى قاعة النوم ، فانطرحت على سريرى باكياً .

و قضيتُ فى تلك المدرسة عدّة أشهر ، و لم أستفد كبير استفادة ، فأنَّى للجوَّ الرَّهيب المشبع بالقسوة و الوحشية ، أن يفتح الأذهان لتحصيل العلم و صَقْل المدارك.

و لمَّا دنا موعد العطلة الكبرى ، كان جُلُّ ما أخشاه أن يحال بينى و بين

الرجوع إلى المنزل و مشاهدة أمّى الحبيبة ، و لكم أن تقدروا مبلغ فرحى و سرورى ، عندما نُبِّئْتُ بالاستعداد للسفر إلى مسقط رأسى. يا للفرحة الكبرى ! أأعود إلى منزلى وإن كنت أعلم أنه لم يعد منزلى، و لكنى حسبى أن أكحل العين برؤية أمى ، و رؤية الأشياء التى ملأت فَراغ طفولتى فى ذلك المنزل .

وعندما عدتُ إلى مسقط رأسي ، ووصلت إلى باب الحديقة ، كنت أتمنَّى على الله أن لا ألقى أوَّل مَا ألقى وجه السيد ((مردستون)) أو وجه شقيقته .

اجتزتُ الحديقة ، و دخلت المنزل فشنَّفَ أذ نى سماعُ صوت أمى و هى تغنّى ، فرجعت بى الذكرى إلى تلك الأيام الجميلة التى كنت أنْعَم فيها بسمَاع غناء أمى ، و أقف أنا و ((بيجوتى)) منها مسرورَيْن معجبين .

ساقنى الصوت إلى الغرفة ، فتخطَّيْت عتبتها ، و رأيت أمى وحدها جالسة قرب الموقد ، و هى تُرْضع طفلاً و تناُغِيه حتى ينام، فناديتُها بصوتٍ خافت ، و سُرْعان ما خفَّت إلىَّ و خففتُ إليها و تبادلنا العِناق و القُبُلات ثم قالت لى و هى تُدنى يد الطفل من شفتىَّ :

ــ((هذا أخوك يا «دافيد» ... قَبِّلْ أخاك يا «دافيد» ...))

و فى غمرة من ذهولى و جمودى ، أقبلتْ علينا ((بيجوتى)) و هجمتْ علىّ كالمجنونة تُوسعنى تقبيلاً ... ثم علمت أن السيد ((مردستون)) و شقيقته قد ذهبا يزوران بعض الجيران ، وأنهما لن يعود إلا فى ساعةٍ

متأخرة من الليل ، فسررت غاية السرور ، و ما كنت لأحلم بمثل تلك السعادة فألقى أمى و ((بيجوتى)) وحدهما بعد ذلك الغياب الطويل . تناولنا العشاء نحن الثلاثة معاً ، و أرادت ((بيجوتى)) أن تقوم بمهمة الخادمة فى ذلك العشاء ، غير أن والدتى طلبت إليها أن تجلس معنا و تشاطرنا الطعام .

و بعد العشاء عُنِيت ((بيجوتى)) بوضع الطفل فى مَهْده ، ثم اجتمعنا معاً نحن الثلاثة قرب الموقد ، و أخذنا نتناجى و نتجاذبُ أطراف الحديث ، و ((بيجوتى)) منهمكةٌ فى تطريزها ، ثم سألتنى أن أقرأ لها فصلاً من قصة التماسيح ففعلت .

و فى نحوا لساعة العاشرة خُيِّل إلىّ أن ريحاً باردة قد عصفت بذلك الجوّ الهادى الدَّافئ فى المحبة و الوداد ، ذلك أننا شعرنا بباب الحديقة يُفْتَح ، فعلمنا أن السيد ((مردستون)) و شقيقته قد عادا من سهرتهما ، فأوعزتْ إلىّ أمى أن أسارع إلى غرفتى لأن زوجها و شقيقته ليس من مذهبهما السمَّاح للأطفال بالسهر حتى تلك الساعة من الليل ، فنفَّذتُ أمرها فرحاً مغتبطاً .

و نزلتُ فى الصباح إلى غرفة الطعام ، و كان القوم مجتمعين فيها فحيَّيْت أمى ثم أقبلت على السيد ((مردستون)) و شقيقته و حييَّتْهما تحيّة طيبة ، فاستقبلتنى الآنسة ((مردستون)) بتنهّدةٍ صادرة من أعماق صدرها و قالت تسألنى :

ـ((كم من الوقت تطول العطلة ؟)) فقلت :

ـــ((شهراً يا آنسة ؟)) فقالت :
ـــ((منذ أى يوم ؟)) فقلت :
ـــ((منذ أمس .)) فقالت :
ـــ((حسن ... لقد مضى منها يوم ...))

و كانت فى صباح كل يوم ، تنزع من الروزنامة ورقةً ، وهى تَعُدُّ الأيام الباقية من العطلة ، و كان مزاجها يتمشَّى مع مرور الأيام، فبدأت فى الأيام الأولى عابسةً ، ثم أخذت أساريرها تتألق قليلاً قليلاً بعد الأيام العشرة ، و ازدادت تألقاً فى الأيام القليلة الباقية من الشهر ، حتى انتهت العطلة وحان موعد الرجوع إلى المدرسة .

و مهما كان جوُّ المدرسة بغيضاً رهيباً ، فقد أصبحتُ أوثره على جوُّ المنزل فى صحبة السيد ((مردستون)) و شقيقته ، و حسبى هذا الشهر الذى قضيته و شعرت فيه أن هوّةً عميقة تفصلنى عن ساكنيه ، و لقد يطول بى الشرح لو ذكرتُ كلَّ ما لقيته من ترحيب زوج الأمّ و شقيقته ، فما كانا يدعان وسيلةً من الوسائل إلا اتخذاها فى سبيل تنغيص الحياة علىّ ، وإنى لأذكر أنى دخلت مرّةً غرفة والدتى و رأيتها تلاعب طفلها الصغير ، و لم يكن عمره قد تجاوز بضعة أسابيع ، فأحببت أن أشاطرها تلك الملاعبة ، فحملت الطفل و شرعتُ أناغيه ، فسمعتُ صوتاً دَوَّى كالعاصفة العاتيه يقول لأمى :

ــ((ويحك يا «كلارا » كيف تسمحين لهذا الغلام الشَّرِس بحمل هذا الطفل الود يع ؟ !))

و كان صوت الآنسة ((مردستون)) فانتزعت الطفل منى انتزاعاً ، و رَجَعَتْه إلى أمّى . و إنى لأذكر ذلك اليوم الذى د خل علىّ فيه السيد ((مردستون)) وعيناهُ تقدحان بشَرَر السخط والغضب ، و هو يقول لى متُوعَّداً مهدَّداً :

ــ((اعلم أيُّها الغلامُ الطائش ، أنه ليس من الكرامة أن تقضى أوقات فراغك مع الخادمة « بيجوتى » أفهمت ؟ وحذار أن تخالف أمرى !))

فطأطأت رأسى مُذْعِناً و حزّ فى صدرى تنفيذ ذلك الأمر ، فإن ((بيجوتى)) الكريمة الوفيّة كانت لفؤادى البرد و السلام فى ذلك الجوَّ الخانق .





٣

مَضَى على رجوعى إلى المدرسة نحوُ شهرين ، فدُعيتُ ذاتَ يومٍ إ لى غرفة الزائرين ، فهبطتُ إليها مسرعاً على أمَلِ أن ألقى ((بيًجوتى)) قد جاءتنى ببعض الحلوى و الهدايا ،و لكنَّنى دهشتُ كُلّ الدّهَش عندما رأيت فى تلك الغرفةِ الفسيحة ، ناظرَ المدرسة جالساً إلى مائدةِ الطعام ، يلتهمُ ما حَفَلَتْ به المائدة من فطائر و جبن وحلوى و إلى جانبه زوجته و قد بدَتْ مفكّرةً مهمومة ، فخفّتْ إلىَّ وأجلستنى على بعض المقاعد و جلست بإزائى و هى تقول :

ــ((إنك بعدُ صغيرٌ يا «دافيد « فلا تستطيع أن تدرك تقلُّب الأيام

وحوادثَ الدهر ، ولا تعرف كيف تَطْغَى المنيّة على الأحياء فتُقْصيهم عن أحبّائهم و معارفهم ، و لكنه أمرٌ يجب أن ندركه و نعرفه .))

فحَدَّقْتُ فيها مذهولاً من هذا الحديث ، فاستأنفتْ هى الكلام و قالت :

ــ((عندما عُدْتَ من العطلة ، أكان جميع ذويك فى سلامةٍ و عافية ؟ ... أكانت والدتك تشكو من عِلَّة من العِلَل ؟))

فاضطربتُ من رأسى إلى أخْمَص قدمى عندَ سماعى هذا السؤال ، أمَّا هى فعادت تقول :

ــ((يَعِزُّ علىَّ يا « دافيد » أن أخبرك أن والدتك مريضة ... مريضة جدَّاً .))

فغشيتْ عينى سحابة من الكآبة حجبَتْ عنى وجه محدثتى ، ثم شعرتُ بالدّمع ينهمر من مآقىَّ ، و سمعتها تستأنف حديثها وتقول :

ــ((إنها فى خطرٍ جسيم ...))

فأدركتُ الحقيقةَ الرهيبة ، و علمتُ أن أمى قد ماتت ، وأنى أصبحتُ يتيمَ الأبوين فى هذا العالم ، ثم علمتُ أيضاً أنّ أخى الصغير قد مات أيضاً بعد موت أمى بلحظاتٍ قلائل .

جرى هذا الحديثُ القاتل ، و ناظرُ المدرسة لم ينفكَّ يزد رد طعامه ، و يطالع الصحف التى أمامه ، فعطفتْ علىَّ زوجته كلَّ العطف ، و تركتنى

معها طوال النهار وأنا أبكى مرّةً و أهيمُ فى بوادِى التفكير مرّةً أخرى، و هكذا دوالَيْك . و فى اليوم التالى ، تركتُ المدرسة و عدتُ إلى المنزل ، فاستقبلتنى ((بيجوتى)) على خطواتٍ منه ، و ما إن رأتنى حتى انفجر الدّمعُ من محاجرها ، ثم كتمتْ حزنها و عبَراتها ، وتناولت يدى و سارت بى إلى المنزل و هى تكاد تتكلم همساً كأنها تخشى أن توقظ الأموات .

دخلتُ البهْو ، فرأيت السيد ((مردستون)) جالساً إزاء الموقد، يكفكفُ عبراته على فقيدته الغالية المسْجاة فى غرفتها ، و رأيت شقيقته جالسةً إلى منْضدة مزدحمة بالرسائل و الأوراق ، تكتب و هى مستغرقة فى الكتابة ، فمدّت إلىّ إصبع يدها محييةً ثم قالت :

ــ ((ستتولَّى « بيجوتى » عمَّا قليل أخْذَ قياسِك لملابس الحِداد... هل أتيتَ بجميع أمتعتك و قمصانك من المدرسة ؟)) فقلت :

ــ((نعم يا سيدتى .))

و كان هذا الحديثُ كلَّ العزاء الذى التمسَتْه لى هذه الآنسة القاسيةُ القلب الغليظةُ الكبد .

و لما تم تشيعُ الجنازة ، أقبلتْ علىَّ ((بيجوتى)) و أنا فى غرفتى ، تحدّثنى عن أمى الحبيبة و عن أخى الصغير فقالت لى :

ــ((فى الليلة الأخيرة قَبَّلَتْنى أمّك العزيزة و قالت لى : « يا بيجوتى ! إذا مات طفلى أيضاً ، فأرجو أن تضعيه بين ذراعىّ ، و أن يدفنونا معاً

(و هذا ما فعلتُ ، لأن الطفل المسكين مات بعدها بلحظات) كما أرجو أن يصحبنا دافيد إلى مقرَّنا الأخير ، و قولى له إن امّه فى ساعاتها الأخيرة قد باركته و دعتْ له بالخير « .))

و سكتتْ ((بيجوتى)) و أخذت تُمِرُّ يدها بِرفْقٍ على رأسى و وجهى ، ثم عادت إلى الكلام و قالت :

ــ((و كان الليل فى هَزِيعه الأخير ، فطلبتْ منى الفقيدةُ العزيزة أن أرْوِى ظمأها بجُرْعة ماء ، فلما شربتْ غمرتنى بنظرةٍ حُلْوة من عينيها الجميلتين ... و عند الفجر قالت لى : «عزيزتى بيجوتى قرَّبينى منك (و كانت أشبهَ بخيالٍ نحيف) و ضَعى ذراعك تحت عُنُقى ، و اقْليبنى إلى ناحيتك ... إن وجهك يبتعد منى و أوَدّ أن أراه . « فقمتُ بكل ما طلبت ، فأسندتْ عند ئذ رأسها إلى ذراع بيجوتى خادمتها القديمة ، و لفظت أنفاسها و أغفَتْ كما يُغْفى الطفلُ الرَّضيع .))

فكنتُ أسمع هذا الحديث و قلبى يتفطَّرُ حزناً و أسىً ، و يشكر لمحدّثتى عنِايتها و سهَرها على أمى العزيزة . و لم يمرّ يومٌ واحدٌ على تَوارى أمى وراءَ تُراب القبور ، حتى أنذرت الآنسة ((مردستون)) خادمتنا الوفية ((بيجوتى)) بوجوب انقطاعها عن العمل فى المنزل ، و أمهلتْها شهراً . أما أنا فما من كلمةٍ واحدة تشير إلى شأنى و مستقبلى ، و لقد تشجعت ذاتَ مساء و سألتُ الآنسة ((مردستون)) متى أعود إلى المدرسة فأجابت أنى لن أعود إليها و

أقفلتْ باب الحديث ، فما استطعتُ و لا استطاعت ((بيجوتى)) أن تعلم شيئاً عما يُضْمره لى هذان ا لشّقيقان .

و جلسنا ذاتَ مساء نتحدّث معاً فى المطبخ ، و يدور حديثنا على مصير كلٍّ منّا فقالت لى :

ــ((لقد بحثتُ طويلاً يا عزيزى عن عملٍ لى فى هذه المدينة ، فما وقعتُ على شئٍ يلائمنى .)) فقلت لها :

ــ((و ماذا تنوينَ أن تفعلى ؟)) فقالت :

ــ((سأضطَّرُّ فى الغالب إلى الرحيل عن المدينة ، و السُّكنْى مع شقيقى على شاطئ البحر ، و أنت تعلم أن المكان ليس بعيداً ، فسوف أ زورك مرةً كل أسبوع ما دمتَ أنت هنا .))

فخفَّفَ هذا الوعد عن صدرى همَّاً كبيراً ، و استأنفت ((بيجوتى)) حديثها قائلة :

ــ((سأقضى عند شقيقى أسبوعين حتى أستعيدَ قواى ثم ... و لكن اسمع ... لقد دار بخَلَدى خاطرٌ من الخواطر ... من المحقق أن السيد « مردستون « و شقيقته ليسا فى حاجة إليك ، فلعلهما يسمحان لك بالرحيل معى .))

و لاحت فى هذه اللحظة الآنسة ((مردستون)) فحدّثتها ((بيجوتى)) عن هذا الخاطر فى شجاعةٍ منقطعة النظير فقالت :

ــ((سواءٌ رَحلَ معك أم بقى معنا ، فسوف يضيع وقته عبثاً ، فهو غلامٌ كسولٌ بليد لا يُرجْى منه أى نفع كان ، و لسوف أحمل أخى على قبول أقتراحك و لو إلى أمدٍ قصير ، لأوفّر عليه عنَاء الاهتمام فى هذه الفترة بهذا الأبلة الخامل .))

و عند انقضاء المهلة التى مُنِحَتها ((بيجوتى)) تركنا المنزل معاً، و رحلنا إلى قرية شقيقها ، و نزلنا على القوم الذين عرفناهم فى تلك السفينة الغارقة فى الرمال .

و فى أثناء إقامتى بين ظَهْرانْى هؤلاء الكرماء ، زُفَّت ((بيجوتى)) إلى السيّد ((بركيس)) ، و ((بركيس)) هذا هو الحوذى الذى ركبنا مركبته فى مجيئنا إلى القرية ، و ركبتها أنا غير مرّة فى ذهابى إلى المدرسة و إيابى منها ، و كان الرجل مغرماً بصاحبتنا ((بيجوتى)) و كان قد طلب يدها مراراً ، فقبلت به زوجاً فى هذه المرّة و زُفَّتْ إليه ، و لعلها رضيت بالزواج ليكون لها بيتٌ تسكنه و تستضيفنى فيه عند الحاجة .

و غداة يوم الزواج ، تركت السفينة الغارقة ، و ذهبت أقيم مع العروسين ، فخصَّصت لى ((بيجوتى)) غرفة صغيرة ، أويتُ إليها ووضعتُ الكتاب الذى يَرْوِى قصة التماسيح على رفٍّ إلى جانب سريرى ، فقالت لى ((بيجوتى)) يوماً :

ــ((يا عزيزى ! هذه الغرفة غرفتُك ما دمتُ أنا على قَيْدِ

الحياة،وسوف أعْنَى بتنظيفها و ترتيبها كلَّ يوم ، كما كنتُ أفعلُ في منزلك ، و اعلم أن لك في هذا المأوى غرفة خاصة بك سواء أقمت بها أم كنت في أقاصي الصين .))

فشكرتُها على رقيقِ عاطفتها ، و أكبَرْتُ منها هذا الوفاء ، و كم وددتُ لو بقيتُ في هذه الغرفة الحقيرة ناعماً بمحبّة ((بيجوتى)) وعنايتها ، و لكن المدة التي سمح لي فيها السيد ((مردستون)) وشقيقته بالتغيُّب عن المنزل كانت قد انتهت ، فاستعدَّتْ ((بيجوتى)) لتصحبني إلى المنزل في مركبة زوجها .

وصلنا إلى باب الحديقة فودّعتني ((بيجوتى)) و ودّعتْها وداعاً أليماً ، و حيَّيْتُ زوجها و رحلت إلى ذلك المنزل الذي لم يَعُدْ لي فيه أحدٌ يعطفُ عليّ و يحبُّني .

عشتُ فيه و أنا في شبه عزلة ، و كان الشقيقان يُمْعنان في الجفاء و القَسْوة ، و يُشْعرا ني بأني عالةٌ عليهما ، و علمتُ عَرَضاً أن السيّد ((مردستون)) قد شَحَّ المالُ في يديه ، فلا عجب إذا اتَّخذ ضيقَ رِزْقه سبباً في التبرُّمِ مني و من حياتي في كَنَفِه .

و لقد استدعاني يوماً إليه و قال لي :

ــ((تعلَمُ أيها الكسول ، أني لست غنيَّاً ، فإن كنتَ تجهل هذا الأمر فها أناذا أقِفُك عليه ، و لا إخالُني قادراً أن أعيدك إلى المدرسة ، فلا طاقةً

لى بنفقاتها ، وهَبْنى قدرتُ عليها فما أراك أهْلاً للدراسة وتحصيل العلوم . . .))

فنظرتُ إليه مدهوشاً من هذا الحكم القاسى علىّ ، و أخذت أتوقَّعُ أوخم العواقب من هذا الحديث ، فاستأنف كلامه و قال :

ــ ((فلا بُدَّ لك إذن من عمل تعمله فتكسب منه بعض ما يقومُ بأوَدك . . . ولعلك سمعتَ ببيتٍ تجارى لبيع أصناف البقول والحبوب أملكه فى " لندن " أنا والسيد " كينيون " الحاضر معنا هنا ، وفى ذلك البيت التجارى كثيرٌ من الصبية العاملين فيه ، فستنضمّ إليه وتتكفل بنفقاتك)) .

ورحلتُ فى صباح اليوم التالى مع السيد ((كينيون)) إلى ((لندن)) ، وانخرطت فى سِلك العاملين فى تلك التجارة ، و عُهِدَ إلىّ فى إلصاق البطاقات على زجاجات الشراب والصناديق التى تحتويها ، وكان يشاركنى فى ذلك العمل أربعةُ غلمان يدلُّ مظهرهم على فقرٍ مُدْقع و طباعٍ لئيمة .

و فى مساء ذلك اليوم ، دعانى السيد ((كينيون)) و قدمنى إلى رجل من أصدقائه يُدْعَى ((مكوبر)) و أخبرنى أنه أستأجر لى غرفةً فى منزل هذا السيد فرحّب الرجل بى و تطّوع أن يصحبنى إلى منزله لئلا أضلّ طريقى إليه .

و أفهمنى السيد ((كينيون)) أنه جعل راتبى ستة شلنات فى الأسبوع ، و نقدنى راتب أسبوع مقدَّماً لأستعين به على قضاء ما أنا فى حاجة إليه ، فدفعت من ذلك المبلغ ستة بنسات لنقل حقيبتى ، و ستة بنسات أخرى

ثمناً لعشائى ، ثم عدت سريعاً إلى حيث كان ينتظرنى السيد ((مكوبر)) فصحبنى إلى منزله .

واستقبلنا فيه زوجته فألفيتُها سيّدةً شاحبةَ اللون ،هزيلةَ الجسم، قد بدأت الشيخوخة تَخِطُها بخيوطها البيض ، و رأيت البيت يعجّ بأطفال الزوجين ، فقادتنى ا لسيدة إلى غرفتى ، و يالها من غرفة صغيرة حقيرة تكاد تخلو لا من الرياش بل من ضرورىّ الأثاث .

و علمتُ بعد ذلك أن السيد ((مكوبر)) هذا كان ضابطاً متقاعداً من ضُباط البحرية ، و أنه يعمل الآن سمساراً لبعض البيوت التجارية ، غير أن رزقه من عمله كان ضئيلاً جدّاً ، فكَثُر دائنوه ، و ضايقوه بزيارتهم ، و لكنه كان ينتهى هو و زوجته من مضايقتهم إلى استئناف مرحهما و سرورهما و الابتسام للحياة .

و سرَّنى أن أعيش فى صُحْبة هذه الأسرة فقيرة الحال ، الغنية بالأبتهاج و الأطفال ، و كنت أعودُ إليها فى مساء كلّ يوم ، و كأننى على موعد مع راحة البال . و لابد لى أن أشير هنا إلى أن السيد ((كينيون)) صاحب المحل الذى أعمل فيه ، كان يَقْدُر لى نشاطى ومواظبتى على العمل ، فيعاملنى معاملة حسنة ، و يرى أنى من طينةٍ غير طينة الزملاء الذين يعملون معى .

و لقد كنت على عَلاقةٍ طيِّبة مع هؤلاء الزُّملاء ، غير أننى كنت أحتفظ لنفسى بكرامتها ، فلا أمازحهم و لا أرفع حِجاب الجدّ بينىوبينهم ،

حتى إ نهم سَمَّوْنى ((السيّد الصغير)) .

و ما كان هذا اللقب ، ليمحو من نفسى السّأم و ا لشّجون من هذه الحياة التى أحياها ، و من العمل الذى أزاوله ، مع ما كنتُ ألقاة من أسرة ((مكوبر)) من حَفاوة و رعاية ، و لقد كتمتُ تلك الشجون فى نفسى ، فلم أ بُحْ بها ((لبيجوتى)) فى الرسا ئل الكثيرة التى بعثتُ بها إليها و ذلك أَنَفَةً منى و كبرياء ، و خوفاً من أثير آلامها .

وتراكمت الدّيون على السيد ((مكوبر)) حتى شكاه الدائنون إلى القضاء ، فحكم عليه بالحبس ثم استأنف الحكم فخففت عنه عقوبة السجن ، ونزلت إلى أسابيع قليلة ، استناداً إلى أنه مَدِين مُعْسِر ولكنه حَسَن النّية . وخرج ا لسيّد ((مكوبر)) من السجن وقد اسودّت الدنيا فى عينيه ، مع تلك الطاقة الكبرى من التفاؤل الذى كان يملأ جوانحه .

و اضطرَّت أسرته فى أثناء تغيبه فى السجن إلى أن تبيع القليل الباقى لها من المتاع و الأثاث ، لتُبْقى على رَمَقها و لا تموت من الجوع .

و قرّرت الأسرة بعد ذلك أن ترحل إلى مدينة ((بليموث)) حيث تقطن أسرة زوجة ((مكوبر)) فلعلَّ الحظ الذى نَفَر منها فى ((لندن)) يواتيها فى تلك المدينة .

و ضاقتْ بى الدنيا ، و فكرتُ طويلاً فى أمرى و وددت لو استطعت أنا أيضاً الفِرار من المدينة و من ذلك العمل ا لشائن الشاقُّ الذى أزاوله

و لكن إلى أين المفرّ ؟ إلى أين ينطلق يتيمٌ صغير لا نصيرَ له و لا أهل . فخطر ببالى أن أهجر العاصمة إلى الريف ، وألتجى إلى العمة ((بتسى)) وهكذا كانت تسمّيها المرحومة أمى ، و لكننى كنت أجهل عنوانها ، فسألتُ ((بيجوتى)) عنه ، و طلبت منها فى الرسالة نفسها أن تقرضنى نصف جنيه ، ووعدتها أن أفِيَها ذلك المبلغ فى موعد قريب إن شاء الله . وجاءنى جواب ((بيجوتى)) يفيضُ كالعادة بالشّعور الرقيق و المودّة الفائقة ، و يدلُّنى على عنوان العمة ((تروتوود)) و قد شفعت جوابها بالمبلغ الذى استقرضتُه .

على أننى لم أستلف هذا المبلغ إلاّ ليعيننى على نفقات السفر ، فراتبى الأسبوعى كان لا يكاد يكفينى .

حزمتُ حقيبتى و أودعْتُها كل ملابسى ، و نزلتُ بها إلى الشارع ، فلقيت مُكارِياً يسوق حماراً ، فاتَّفقتُ معه على أن يوصل حقيبتى إلى مكتب مركبات السفر لقاءَ جُعْل معلوم ، فشَدَّها إلى بَرْذَعة الحمار ، و ركب هو وراءها و طار بحماره لا يَلْوى على شئ ، و عَبَثاً حاولتُ أن أتبعه ، فالمسافة بينى و بينه كانت تطول ثم تطول حتى غاب عن بصرى فعلمت أنه لصٌّ أفَّاك قد سلبنى الحقيبة و أنْفِى راغم .

ركبتُ إحدى المركبات العامة ووجهتى القرية التى تسكنها العمة ((تروتوود)) حتى بلغتها بعد يومين ، و اضطُّرت فى ليلتين

متوالتين أن أقضى الليل كبقيّة المسافرين فى أحد الفنادق المتناثرة على الطريق ، و أن أتناول فيها شيئاً من الطعام حتى كادت نقودى تَنْفَذ .

وبلغنا فى صباح اليوم الثالث القرية ، فنزلت أطوف فيها باحثاً مفتّشاً عن مسكن عمتّنا الجليلة .

واتَّفق لى بعد مسيرةِ ساعة ، أن صادفتُ حوذيَّاً ينظِّف مركبته ، فاقتربت منه و سألته هل يعرف منزل الآنسة ((تروتوود)) فحدّق قليلاً فى صفحة السماء ثم انثَنَى إلىّ و قال :

ــ((" تروتوود " " تروتوود " ... أهى سيدة عجوز ؟)) فقلت :

ــ((نعم ... فى مطلع الشيخوخة .)) فقال :

ــ((و متعجرفة جافية الطبَّاع ؟)) فقلت و قد أيقنتُ من دقّة الوصف :

ــ((نعم ... ربما كانت جافيةَ الطبع بعضَ الجَفاء .)) فقال :

ــ((اسْلُكْ هذا الشارع ثم انعطفْ منه يميناً ثم شمالاً حتى يواجهك البحر ، فاسأل هناك عن منزل السيدة "تروتوود " يدلُّوك عليه .))

فشكرته و مضيت أجتاز الشوارع التى دلّنى عليها ، حتى طالعنى البحر ، و كنت قريباً من دكان بقّال فدخلته و سألت صاحبه عن منزل ا لسيدة ((تروتوود)) فسمعت صوتاً عالياً يدَوَّى قائلاً :

ــ((من هذا الذى يسأل عن منزل الآنسة " تروتوود " ؟))

فتطلَّعت إلى جهة الصوت فألقيتُ صاحبته خادمةً جاءت تبتاع



شيئاً من الأرز من دكان البقّال فقلت لها :

ـ((و هل تعرفينه ؟)) فقالت :

ـ((و كيف لا أعرف منزل مخدومتى ... و لكن إن كنت جئت تسَتَنْدى كفّها ، و تطلب منها أن تحسن إليك ، فعَدَّ عن هذا وعُدْ من حيثُ أتَيْت .))

ـفكرت قليلاً فى كلام هذه الخادمة ، فرأيت أنها لم تخطيء فما جئتُ من أجله ، و لكن كتمت عنها غايتى و صحبتها إلى المنزل فأوصلتنى إ لى الباب ثم تركتنى عنده ، و ذهبت إلى باب آخر تدخل منه إلى المنزل و هى تقول لى :

ـ((هذا كلُّ ما استطيع أن أفعله من أجلك ... و أنت و شأنَك بعد هذا !))





٤

دخلتُ المنزل فما اعترض سبيلى أحد ، ووصلت إلى البهو الكبير فكان خيالياً ، فاقتربت من النافذة و تطلّعْتُ منها إلى الطبقة العليا من المنزل ، فرأيت فى الشُّرْفة رجلاً طَلْقَ الوجه ، رمادىّ الشَّعَر ، فابتسم لى وأخذ يغمزنى بعينيه غَمزاتٍ لم أفهم مغزاها ، أتراه يرحب بى أم ينذرنى بالخروج ، فاختتم غمزاته بأن انصرف ضاحكاً . فعدتُ أدراجى من البَهْو ، وخرجت من المنزل بعد أن استقرَّ فى ذهنى أن العمَّة التى جئتُ إليها غير موجودة فيه ، ولكن ما كِدْتُ أجتاز الباب ، حتى رأيته انفتح ثانية ، وخرجتْ منه سيّدة قد عصبتْ رأسها بمنديل ، و لبستْ فى يدها قُفَّازاً ضخماً مما يلبسه البستانيون، و

ارتدت برداءٍ طويل ، و أمسكت بيمينها سكّيناً كبيرة، فأدركتُ على الفور أنها العمة ((تروتوود)) فمِشْيَتُها المتعجرفة الحازمة ، هى المِشْية التى طالما حدّثتنى عنها أمى يوم رأ تها فى منزلنا ، فلما رأتنى أشارت إشارة غريبة و السكين فى يدها و قالت لى :

ــ((اذهبْ من هنا فما من صِبْيةٍ يدخلون هذا المنزل !))

و تركتنى و انصرفت إلى زاويةٍ من حديقتها ، و همَّتْ باقتلاع بعض النبات ، فدبّت شجاعة اليأس فى قلبى فتبعتها و لمستُ بيدٍ مرتجفة طَرَف ثوبها و قلت :

ــ((سيّدتى عَفْوَك ...))

فاضطربتْ و نظرتْ إلىَّ نظرةً فاحصة ، فأردفتُ أنا قائلاً :

ــ((عمتى العزيزة ... عفوك ...)) فقالت مدهوشة :

ــ((ماذا تقول ؟)) فقلت :

ــ((عمّتى العزيزة ...)) فاستمرّت تفحصنى فتابعتُ أنا كلامى قائلاً :

ــ((أنا " دافيد كوبر فيلد " الذى حضرت تزورين أمّه يوم مولده... فمنذ موتها و أنا شقىٌّ تاعس ... لقد اغفلوا شأ نى ، و ضَنُّوا علىّ بالتعلُّم ، و أكرهونى على عمل لم أخلق له فهربتُ و جئت ألقاك ... بعد إذ سُرِقَ متَاعى ...))

وهنا خانتنى القوى ، فانسكبت الدموع من عينى . و كانت عمتى حتى هذه اللحظة أسيرةَ الدَّهَش و الاستغراب ، فلما رأتنى أبكى ، أمسكت بى و أدخلتنى إلى البهو ، و أجلستنى فى أحد المقاعد ، ثم جاءتنى ببعض الشراب المنعش و هى تقول بصوت يدوِّى كالرَّعْد :

ـ((آه يا إلهى !))

و بعد لحظة قصيرة ، استدعت الخادمة فأقبلتْ هذه مُهَرْوِلَةً فقالت لها بصوتها الرنان :

ـ((اصعدى إلى الطبقة العليا ، و قولى للسيد " ديك " إ نى أريد أن أحدَّثه.))

و أخذت العمّة تَذْرَع الغرفة جيئةً و ذهوباً ، و يدها مشتبكان وراء ظهرها ، حتى دخل علينا رجل يضحك ، فإذا هو الرجل الذى لمحته فى الشُّرْفة ، و أمطرنى بغمزاته ، فقالت له عمتى:

ـ((أرجو منك أن تجدَّ قليلاً ... فلست أعرف أرْزَنَ منك عقلاً عندما تشاء ... فعَدَّ إذن عن المُزاح ، و أهِبْ بعقلك و حَصافتك .))

فاستبدل الرجل بقَسمَاتِه الضاحكة قسمات العبوس و الصرامة ، فقالت له عمّتى :

ـ((يا سيّد " ديك " لقد سمعتنى مراراً أتحدّث عن " دافيد كوبر فيلد " .))

فأخذ الرجل يُدِير رأسه فى أ نحاء البَهْو كمن يريد أن يتذكّر أمراً ثم قال :

ــ((" دافيد كوبر فيلد " .. نعم . نعم . هذا صحيح !)) فقالت عمتى و هى تشير إلى :

ــ((هذا ابنه ... و إليك السؤال الذى أريد أن أوجّهه إليك ... ماذا عساى أصنع بهذا الغلام ؟))

فحك الرجل جبينه وقال :

ــ((ماذا عساكِ تصنعين به ؟)) فقاطعته قائلة :

ــ((أجل ماذا عساى أصنع به ... حَذارِ ! ! أريد منك رأياً خَمِيراً .))

فنظر إلىّ السيد ((ديك)) نظرة عابرةً وأطرق هنيهة ثم قال :

ــ((تبدئين أوّلاً بالسمَّاح له بالاستحمام .)) فصاحت عمّتى صحية الظافر المنتصر وقالت للخادمة :

ــ((" جانيت " ! أوقدى الحمّام . إن ا لسّيد " ديك " لعَلى حّقٍ وصواب .))

وأدهشنى أن أرى الرجل يتألَّق وجهه سروراً من المديح الذى غمرته به عمتى ، وتخيّلته رجلاً لا يخلو من البلاهة ، و لكننى لم أستطع أن أفهم كيف يُقيم مثل هذا الرجل فى منزل عمّتى .

وأنعشنى الحمام فخرجت منه نشيطاً قويَّاً و جاءتنى عمّتى

بقميصٍ من قمصان السّيد ((ديك)) فلبسته و إن يكن قميصاً فضفاضاً ، ثم رأيتها قد أعدَّتْ لى بعض الحَساء ، فجلستْ قِبالتى و أنا أحتسيه .

ونهضتْ فجأة تنادى السّيد ((ديك)) فأقبل على عَجَل ، فطلبت إليه أن يُصْغى كلَّ الإصْغاء إلى قصْتى التى سأسردها عليهما ، فأخذتُ أروى قصّتى ، و كانت عمتى طوال الوقت تحدَّق فى السيد ((ديك)) تحديقاً شد يداً ، و كلما همّ الرجل بالابتسام ، قطَّبتْ حاجبَيْها و عبست فى وجهه ، فعاد يتصنّع الجدّ . فلما فرغتُ من روايتى قالت عمتى تخاطب السيد ((ديك)) :

ـ((والآن ... انظر جيَّداً فى وجه هذا الغلام ، فعندى سؤال سأوجهه إليك .)) فقال السيّد ((ديك)) :

ـ((إنه ابن « دافيد « .)) فقالت عمّتى :

ـ((و لهذا أسألك ماذا تصنع به ؟)) فقال :

ـ((ماذا أصنع بابن « دافيد « ؟)) فقالت عمّتى :

ـ((نعم ماذا نصنع بابن « دافيد « ؟)) فقال السيد ((ديك)) :

ـ((آه ! ماذا أصنع به ؟ أضعه فى الفراش .)) فصاحت عمّتى صحية المنتصر الظافر :

ـ((« جانيت « إن السيد « ديك « لعلى حقّ و صواب ... أعِدَّى السرير ليستلقى إليه هذا الغلام .))

فأُعِدَّ السرير ، و أستلقيت إليه بقيّة النهار ، و نمت الليل كله نوماً هادئاً ، و فى الصباح نزلت إلى غرفة الطعام فلقيتُ فيها عمَّتى مستغرقةً فى تفكير عميق ، فنبَّهها دخولى الغرفة فصاحت عندما رأتنى و قالت :

ــ ((لقد كتبتُ إليه ...)) فقلت :

ــ ((إلى ...)) فقاطعتنى قائلة :

ــ ((إلى زوج أمّك .)) فقلت مضطرباً :

ــ ((أقلتِ له أين أنا يا عمّتى ؟)) فقالت و هى تهز رأسها :

ــ ((نعم .)) فقلت متلعثماً :

ــ ((أو تَدفعينى إليه يا عمّتى ؟ !)) فقالت :

ــ ((لستُ أدرى ... سنرى .)) فقلت يائساً :

ــ ((يا إلهى ... رُحماكِ يا عمتى و لا تسمحى بأن أعود إلى السيد « مردستون « .)) فقالت عمّتى :

ــ ((لست أدرى ... سنرى . سنرى .))

و فى أثناء النهار حاولت عمتى أن تعرف رأيى فى السيد ((ديك)) فأثنيتُ على ظَرْفه و رقّة حاشيته فقاطعتنى و قالت :

ــ ((يقولون إنه مجنون مسلوبُ العقل ... و يَلَذُّ لى أن أعرف أنه مجنونٌ مسلوبُ العقل و إلا ما تمتعتُ بصحبته و نصائحه منذ نحو عشر سنوات ... إن السيّد « ديك « حليفى و لست فى حاجة إلى أن أبيّن لك

نوع هذا الحلف ... فلولاى لاعتقله أخوه و زجّه فى مستشفى الأمراض العقلية ... إنه أبْلَه متكبر ... و أعتقد أن أخاه هو المجنون... فلما حَمِىَ وطيسُ الشجار بينهما قلتُ لأخيه إنه هو المجنون ... و طلبت منه أن يرصد له راتباً يعيش منه و أن يقيم فى منزلى... أنا لست أخشاه و لا أسئ معاملته ... و ها هو ذا مقيم معى و إنى لأراه لطيف المعْشَر حُلْوَ الطَّباع ... أمَّا آراؤه النيَّرة فما من أحدٍ يَقْدُرها قَدرْهَا غيرى .))

وقع كلامُ عمتى من قلبى موقعاً جميلاً و هى تدافع عن المظلومين فى شخص السيد ((ديك)) ، و علَّلت نفسى بأنها لن تكون معى أقلَّ كرماً و رعاية منها مع هذا الغريب عنها ، فبدأتُ ، على طباعها الشاذّة ، أشعر نحوها بالتجلَّة و التعظيم .

و أقبل علينا فى اليوم التالى السّيد ((مردستون)) و شقيقته ، فرحبّت بهما عمّتى ، و نادت على الفور السّيد ((ديك)) فجاء مسرعاً و وقف بين هؤلاء القوم وقفةً خطيرة ، كمن يريد أن لا تفوته شاردةٌ و لا آبدة من حديثهم ، فاستهلّ ا لسّيد ((مردستون)) الكلام وقال :

ــ((لمَّا تسلمتُ رسالتك يا سيّدتى ، رأيتُ من واجبى ومن فروض الإجلال لك ...)) فقاطعته العمّة و قالت :

ــ((أشكرك ... لا تحسب حسابى .)) فتابع السيّد ((مردستون)) كلامه قائلاً :

ـ((... أن يكون مجيئ إليك هو الجواب عن رسالتك ... فهذا الغلام الطائش الذى فرّ من أصحابه و عمله ...)) فقاطعته شقيقته قائلة :

ـ((و ا لذى تلوحُ على سيمائه سِماتُ طيشة و سُوء أخلاقه .))

فَنهَرها شقيقها و قال :

ـ((لا تقاطعينى ... إن هذا الغلام يا آنسة « تروتوود » قد سبَّب لنا متاعب جمّة ، فهو غلامٌ ثائر متمرّد ، و كم حاولتُ أنا و شقيقتى أن نصلح المعوجَّ من أخلاقه فما أفْلحنا ... و ها نحن أولاء قد جئنا ننفضُ إليك جليلّة الأمر فى صِدْقٍ و إخلاص .)) فقالت عمّتى بلهجة جافَّة :

ـ((هذا كثير !)) فقالت الآنسة ((مردستون)) :

ـ((الوقائع تثبت ما رواه أخى ، فقد ألحقه بعملٍ جليل و لكنه هرب منه .)) فقالت عمتى تخاطب السيد ((مردستون))

ـ((لنبحثْ أوّلاً فى هذا العمل الجليل ... فلو كان هذا الغلام ابنك ، أكنت ألحقته بذلك العمل الجليل ؟)) فقالت الآنسة ((مردستون)) تجيب هى عن السؤال :

ـ((لو كان هذا الغلام ابن شقيقى ، لما كان شَرِس الأخلاق سيّئ السُّلوك !)) فقالت عمتى :

ـ((يا للمسكين ! أوَلمْ يورَّثْه أبوه أو أمه شيئاً ؟))فقال ((مردستون)) :

ـ((كلُّ ما تركه أ بوه من مال ، كانت أمه قد أنفقته فى سبيل



العيش قبل أن أتزوَّجها . و كيفما كان الأمر فإنى على استعداد لاسترجاع هذا الغلام ، شرطَ أن لا يدخل أحدٌ بينى و بينه ، فأصنع به ومنه ما أريد .))

فقالت عمتى موجّهة إلىّ ا لسؤال :

ــ((وأنت يا « دافيد « أترغبُ فى الرحيل مع السيّد « مردستون « ؟))

فتوسلتُ إلى عمّتى أن لا تدفعنى إلى السّيد ((مردستون)) وشقيقته فهما لا يحبّانى ، و لقد ماتت أمى مقهورة أسيفة على ما كان يُضْمِران لى من كراهية ، فالتفتت عمتى إلى السيّد ((ديك)) وقالت :

ــ((يا سيد « ديك « ماذا أنا صانعةٌ بهذا الغلام ؟)) ففكر السيّد ((ديك)) قليلاً ثم قال مبتسماً :

ــ((اذهبى به إ لى الخيّاط ، و أوصى له على بذلة جد يدة .))

فصاحت عمتى صيحة المنتصر الظافر :

ــ((يا سّيد « ديك « هات يدَك لأصافحها ... إن رجاحَة عقلك و صوابَ رأيك أمرٌ لايقدّر .))

و بعد أن صافحت عمّتى السيد ((ديك)) جذبتنى إليها وقالت تخاطب السيّد ((مردستون)) :

ــ((إنى سأحتفظ بهذا الغلام ... فإن كان على مثل الأخلاق التى زعمتم ، فسوف أحذو حذوكم فى إصلاحه ، و لكننى لا أصدَّق حرفاً

مما قلتماه ... مع السلامة يا سيّدى ... مع السلامة يا آنسة !))

و ما كادا ينصرفان حتى هجمت على عمتى أعانقها ، و على السيّد ((ديك)) أصافحه .

و توثَّقت أواصر الصداقة بينى و بين السيد ((ديك)) فكنا نخرج معاً إلى الحقول ، و أقضى أوقاتاً جميلة فى صحبته ، و لم تحل صداقتى دون أن أحتفظ لعمتى بأكرم جميلٍ فى قلبى .

فرغنا ذاتَ مساء من تناول العشاء ، و دخلنا البهو نَسْمُر فيه قليلاً فقالت لى عمتّى :

ــ((علىَّ أن أعْنَى يا « دافيد « بتربيتك و تعليمك ، أيسرك أن تلتحق بالقسم الداخلى من مدرسة « كنتر برى « ؟))

فسرنى هذا العَرْض و أجبت على الفور بنعم ، و إن يكن قد ساءنى فراق عمتى و السيّد ((ديك)) على أنهما وعدا نى بأن يزورانى من حين إلى حين .

و يوم أوصلتنى عمتى إ لى المد رسة ، استقبلنا فيها فتى فى نحو الخامسة عشر سنه ، أحمرُ الشعر شاحبُ اللون ، قد انتثر النَّمش فى خَدَّيْه ، و يكاد يخلو وجهه من شعر الحاجبين ، و تخلو جفونه من الأهداب ، و كان يرتدى رداء أسود و يربط قميصه بربطة عنق بيضاء فقالت له عمتى :

ــ((هل السيّد « ويكفيلد « هنا يا « هيب « ؟)) فقال بعد أن أشار بيده الشاحبة المعروقة :

ــ((نعم يا سيدتى . إ نه فى هذه الغرفة .))

و دخلنا على السيد ((ويكفيلد)) فرأيت معه صبية حسناء فى مثل عمرى ، فعرفتُ أ نها ابنته و أنها تدعى ((أنييس)) كما علمت بعد ذلك أن الرجل مع اضطلاعه بشؤون المدرسة ، يزاول بعض الأعمال الزراعية و المالية و يديرها لحساب موكّليه ، فعهدتْ عمتى فىّ إليه ، ثم ودّعتنى ، فشكرتها من أعماق قلبى على جميل رعايتها ، و وعد تها أن أكون عند حسن ظنّها .

و قضيتُ أياماً جميلة فى المدرسة منصرفاً إلى تلقّى العلم كلّ الانصراف ، و كنت سعيداً جدّاً برعاية الناظر و بقضاء أكثر أوقات فراغى مع ابنته ((أنييس)) اللطيفة الجميلة . و لست أنسى كذلك ((هيب)) ذلك الفتى الشاحب اللون الأحمر الشعر ، فكنت كلما دخلت عليه فى غرفته رأيته مستغرقاً فى القراءة ، و كانت الكتب التى يقرؤها ضخمة الحجم فعلمت منه أنها كتب قانون و أنه يدرس الحقوق فقلت له يوماً :

ــ((إنك رجل عظيم يا سيد « هيب « .)) فتبسم و قال :

ــ((كلا يا سيد « كوبر فيلد « فما أنا فى هذه المدرسة إلا خادم ينتسب إلى أسرة رقيقة الحال ، و لولا عطف ناظر المد رسة و كرم أخلاقه ، لما تمكنت من هذه الدراسة التى ترانى منكباً عليها .)) فقلت :

ـــ((ستصبح يوماً محامياً أو وكيل نيابة أو وكيل أعمال .)) فقال :

ـــ((إن شاء الله .)) فقلت :

ـــ((و من يدرى لعلك تصبحٍ يوماً شريك الناظر « ويكفيلد « أو وارثه من بعده !)) فقال مبتسماً ابتسامة اليأس :

ــ هذا من رابع المستحيلات يا سيد « كوبر فيلد « فأنا كما قلت لك من أسرة متواضعة رقيقة الحال ، و مثل هذه المهنة لا يقبل عليها إلا أناس من بيئة معروفة ، و لا تنجح إلا بين أيديهم ، و من يدرى فلعلك أنت تصبح يوماً شريك السيّد « ويكفيلد « فى أعماله الواسعة .)) فقلت :

ـــ((حقق الله ظنك يا سيدى .))

كنت طول أيام الدراسة ، أراسل ((بيجوتى)) مراسلة منتظمة ، فوقفتها على جميع أحوالى ، و أعدت إليها نصف الجنيه الذى كنت اقترضته منها ، و لم تُخْفِ عنّى دهشتها من عمل عمتى وتصرفها الكريم بعد أن صوَّرتها فى نفسها على هذه الصورة . و لقد أعلمتنى ذات يوم أن السيد ((مردستون)) و شقيقته قد هجرا المدينة وباعا أثاث المنزل ، فأبلغتُ عمتى النبأ فى بعض زيارتها لى . و كان السيد ((ديك)) كذلك يزورنى مرّة فى كل أسبوعين ، فتعرّف فى هذه الزيارات المتكررة على جميع من أوَدّ و أجلّ و أصاحب ، من ناظر المدرسة إلى ابنته ((أنييس)) الجميلة إلى السّيد ((هيب)) المجتهد المجاهد .

و اتفق أن دعانى مرة ((هيب)) إلى تناول الشاى فى منزله المتواضع الذى كان يعيش فيه مع والدته ، فبينا نحن نتناول الشاى، و قد فتحنا الباب المفضى إلى الشارع ، إذا برجل يمرّ بنا ثم يدخل المنزل و يصيح :

ــ((أهذا ممكن ؟ السيّد « كوبر فيلد « هنا ؟))

و لم يكن هذا الزائر الفاجئ إلا السيد ((مكوبر)) فأقبل علىّ يحيّينى و يدهش من ذلك اللقاء ، فاستراح قليلاً و خرجت معه إلى زيارة زوجته فى الفندق ، فسُرّت بلقائى و حدّثتنى عن سوء الحظ الملازم لزوجها ، و أنهما جاءا ليزورا المدينة و يقفِلا راجعين إلى ((بليموث)) ، و هكذا كان ...





٥

لستُ أدرى أكنت مغتبطاً أم حزيناً ، يومَ أ نهيتُ دراستى ، و حقَّ علىَّ أن أغادر المعهد الذى تلقيت فيه علومى ، فقد كنت فى ذلك العالَم الصغير ، الفتى الذى يسترعى الإنتباه ، و يحفونه بكل أنواع الرّعاية ، و يقدرون أخلاقه و مواهبه حقَّ قدرها . و لئن عزّ علىّ مفارقة ذلك الفردوس ا لصغير ، لقد سرّنى أن أخرج إلى العالم الكبير ، و أشعر أنى فيه رجل حُرّ مسؤول عما يفكّر و عما يعمَل .

تبادلتُ و عمتى الآراء فيما يختص بمستقبَلى ، و بالعمل الذى أميل إليه ، و كان ذلك همها الأكبر منذ أن تركتُ المعهد ، حتى إنها قالت

لى ذاتَ يوم :

ــ((مهما زاولتَ من الأعمال فيَعْنِينى و يعنيك أوّلاً ، أن تكون الرجلَ الحازم ، القوىّ الإرادة ، الموفور السلطان على نفسك و عملك، فلو أن أبويك كانا على شئ من قوّة الإرادة والحزم ، لتبدّلت بهما الحال ، و كانا أقدرَ على مواجهة مصاعب الحياة ... إنى أريدُك ذلك الرجل القوىّ الحازم ... أفهمت ؟)) فقلت :

ــ((سأعمل بنصيحتك يا عمتى و أرجو أن أكون عند حسن ظنك.)) و بعد مداولةٍ و مشاورة التفتت إلىّ و قالت :

ــ((أرى قبل أن تختار المهنة التى تصبو إليها ، أن تقوم برحلة قصيرة فى أنحاء الوطن ، فتزور مسقطرأسك ، و تلتقى بتلك الفتاة الغليظة التى عنُيت بعض العناية بتربيتك و تنشئتك ... ماذا تسمى ؟)) فقلت :

ــ((« بيجوتى « .)) فقالت :

ــ((« بيجوتى « . أجل « بيجوتى « و إنه لاسم أرْقَى و أجمل من أن يكون علماً لخادمة !))

و زوَّدتنى عمتى بصُرَّة من النقود ، مشفوعة بدعواتها الصّالحات ، فشددتُ الرَّحال أوّلاً عائداً إلى المعهد لأودّع الآنسة ((أنييس)) وأباها الناظر ، وكان ((هيب)) قد التحق بكلية ((أكسفورد)) فذهبت ألقاه هناك ، ثم صحبته معى إلى زيارة ((بيجوتى)) و إلى الطواف بالمدن والقرى

التى رغبتُ فى مشاهد تها ، و عدتُ بعد مدّة إلى عمّتى و أنا فرح مسرور مملوءًا لذهن و النفس بالآراء و الخواطر ، و عجبتُ كل العجب لما علمت أنها قد سئمت من صحبة السيّد ((ديك)) فأمرته بمغادرة المنزل ، فاستوضحتها عن السّبب فقالت:

ــ((لم يَعُدْ على ما عهدتُه عليه من حَصافة الرأى و ثُقوب الذهن ، و أصبح يُعْوِزه الحزم فى أن يطرد الحمير التى تُغِير على حديقتى و ترعى النبات فيها .)) و بعد أن تناولنا العشاء فى ذلك المساء ، و جلسنا معاً إلى الموقد نصطلى ، التفتت عمّتى إلىّ فجأة و قالت :

ــ((أفكّرت يا « دافيد » فيما كنت قد اقترحته عليك من مزاولة مهنة المحاماة ما دمت قد اتممت دراسة الحقوق ؟)) فقلت :

ــ((نعم يا عمتى . لقد فكرت فى ذلك طويلاً و حدثت عنه صديقى « هيب « .))

ــ((هذا ما يسرنى .))

ــ((ولكنَّ هناك عقبةً دون ذلك يا عمتى .)) فقالت مستطلعة :

ــ((و ما هى ؟)) .

ــ((لا بدّ من مبلغ من المال يدفع للمحامى ا لذى سأتمرّن فى مكتبه .))

ــ((أعرف ذلك ... إنه مبلغ ألف جنيه .)) فقلت :

ــ((إنه مبلغ جسيم يا عمّتى ، و لا أَوَدّ أن أحمِّلك هذا العبء

الثقيل بعدما بذلتِ ما بذلتِ فى سبيل تنشئتى و تعليمى ... صحيحٌ أنى ظفرت بالشهادة التى تبيح لى الانخراط فى سلك المحامين و لكن ألا ترين أن أجرِّب حظِّى فى غيرها من المهن توفيراً لهذا المبلغ الكبير ؟)) فقالت مندفعة :

ــ((إنى أعدّك يا « دافيد « ابنى بالتبنّى ، فثروتى هى ثروتك ، و أقصى أمانّى فى الحياة هى أن أراك موَفَّقاً ناجحاً سعيداً ... و إنى لأذكر الثناء المستطاب الذى أثنى به عليك السيّد «ديك» يوم فاتحته فى أمر أنتظامك فى عداد المحامين ... و ما من أحد غيرى يستطيع أن يقدر آراءه النيّرة حقَّ قدرها ... إذن لقد اتَّفقنا ... ستنخرطُ فى سِلْك المحامين ... و غداً سنذهب معاً إلى النقابة لتسجيل اسمك فيها ...))

و بكرنا فى صباح اليوم التالى فى الرحيل إلى ((لندن)) و لقاء الأستاذ ((سينلو)) و زرناه فى مكتبه فرحّب بنا أجمل ترحيب ، و بعد مقدّ مة طويلة التفت إلىّ و قال :

ــ((إذن تريد يا سيّدى أن تنتظم فى سلك المهنة الشريفة ... لقد أخبرت الآنسة «تروتوود» عندما زارتنى منذ أيام ، أن فى مكتبى مكاناً شاغراً لمحامٍ ناشئ يقضى فيه مدّة التمرُّن ، و يسوءنى أن أتقاضى منكما الرسمَ المقرر لمكتبنا و هو ألف جنيه ، و ما كنت لاحتّم عليكما دفع هذا المبلغ لولا أن شريكى الأستاذ « جوركنس « مصرٌّ على تقاضى المبلغ ، فهو فى المسائل المالية قرمٌ عنيد .))

و بدا لى من كلامه أ نه رجلٌ خبيرٌ بشؤون الحياة ، و يعرف من أين تُؤْكل الكتف ، و لما استأذناه فى الانصراف ، ودّعنا حتى باب المكتب فى لطف زائد و مجاملة لا نظير لها ، و كان همُّ عمتى بعد ذلك أن تدبّر لى مكاناً أقيم به فى تلك المدينة الواسعة ، فأخرجت من جيبها قُصاصة جريدة تحتوى على إعلان عن مسكن للإيجار ، فذهبنا توّاً إليه ، فاستقبلتنا فيه سيّدة بدينة طافت بنا فى أنحاء المسكن ترينا محاسنه و نوافذه المشرفة على النهر ، ثم اختلت السيدتان معاً ، و تداولتا فى الشروط، و عادتا إلىّ و قد ارتسمت على وجه كل منهما علامات الارتياح .

يا لله ! ما أجْمَلَ الحرية و الاستقلال ! و ما أجْمَل أن ينعم الإنسان بمأوى يستأثِرُ به و يشعر أنه سيّد الكون و سيّد حركاته و سَكنَاته ...

وما هى إلا أيام قلائل ، حتى تلقّيت و أنا ذاهب فى الصباح إلى عملى ، رسالة من ((أنيبيس)) تذكر لى فيها أنها تزور مكتب والدها فى ((لندن)) و تضرب لى موعداً للقاء فيه مساء ذلك اليوم.
و التقينا فى الموعد المضروب ، و بادرتها بالتحية التى اعتدت أن أحييّها بها و هى :

ــ((مساء الخير يا مَلَكى الحارس .)) فتبسّمتْ و قالت :

ــ((إن صحَّ أنى ملاكك الحارس ، فأوَدُّ أن أحذَّرك من مَلَك السُّوء .)) فقلت :

ــ((لعلك ترمزين إلى « هيب « !)) فقالت :

ــ((نعم . إنه يعمل الآن كاتباً عند والدى و ينوب عنه فى كثير من أعماله فهو ذكىٌّ نشيط كفىّ و لكنه غير سليم الطويّة .)) فقلت :

ــ((إنك تسيئين الظن به يا عزيزتى ... وإلامَ تستندين فى الحكم عليه ؟)) فقالت :

ــ((إلى أسباب كثيرة ، هى فى مظهرها تافهة ، وفى مَخْبرها كبيرةُ الخطر ، ثم إن سلطانه عليك و تأثيره فيك هما مَدْعاة مخاوفى .))

وكان فى صوتها رنّة من الحذر ملكتْ علىّ مشاعرى ، ثم استأنفت حديثها)) و قالت :

ــ((قد تقولُ إنى فتاة عاشت حتى اليوم فى عزلةٍ عن تيّار الحياة الجارف ، فليست لدىّ القدرة إذن على سَبْر أغوار البشر ، و الحكم على ما تنطوى عليه جوانحهم من خير أو شرّ ، و لكننى ما إخالنى مخطئة فى شعورى و إحساسى ...))

فشمل وجهَ ((هيب)) فى قلبى سحابةٌ داكنةٌ ، و رُحْت أفكر فى الأسباب الخفيّة التى حملت ((أنييس)) على تحذيرى منه ، فقطع علىّ تفكيرى صوتها الحلو وهى تقول مستأنفة :

ــ((لستُ من الغَباوة بحيث أعتقد أن فى مقدور الإنسان أن ينتزع من قلبه عاطفة قويّة و عقيدة راسخة فيه ، و لاسيَّما إذا كان لهذا الإنسان مثل عنصرك الطيب و سلامة نيّتك ... و كل ما أطلبه منك أن تكون على

حذر فى علاقتك بهذا ا لشاب ، و أن تذكر أننى حذّرتك منه.))

و خضنا بعد ذلك فى أحاديث منوّعة ، و يشاء القَدَر فى مستقبَل الأيام أن يثبت لى أن ((أنييس)) كانت على حق فى مخاوفها ، فقد شاء ((هيب)) أن يسدل ستاراً صفيقاً على أصله الوضيع ، فطغى و تكبّر ، و اعتدَّ بمواهبه الفكرية و كان د َيْدَ نُه فى الحياة العَسْف و الجور و الكبرياء ، حتى أصبح يسئ معاملة الناس بل معاملة أمّه المسكينة ، فافترق عنها افتراقه من مخلوق يجلب له الحياء و العار .

و فى مقابلة أخرى أنهتْ إلىّ ((أنييس)) و هى تنتفض سخطاً و غضباً أن ((هيب)) قد أصبح شريك والدها ، فلما أبديتُ لها دهشتى من قَبولها تلك الشركة بعد الذى تعرفه من أخلاق ((هيب)) و مطامعه و جبروته وضعة أرُومته ، قالت لى و الأسف يملأ قلبها :

ــ((تعلم يا عزيزى « دافيد « أنى وحيدة أ بى ، و أ نى أحبَّه حبَّاً جمَّاً ، و لا أ توانى عن القيام بأية تضحية مهما جلّت و كبُرت لأوفَّر له الطمأنينة و راحة البال ، و أفعم أيامه بالبهجة و المسرّة .))

ساءنى أن أتلقّى من ((أنييس)) هذا النبأ ، و سَرَح خيالى فى التضحية الكبرى التى قد تُقْدم عليها إرضاءً لوالدها ، فهممت أن أسألها عن مقدار تلك التضحية الكبرى فسبقتنى إلى الكلام و قالت :

ــ((لقد ظلّ يحيطوالدى بمظاهر شتَّى من عنايته و مساعدته و السهر

على أعماله و مصالحه حتى وَثِقَ به كلَّ الوثوق ، فأصبح لايقوم بعمل من الأعمال و لا يتّخذ رأياً من الآراء إلا بعد مشاورته و الإذعان لرغبته ...)) فقاطعتها مدهوشاً مُغْضَباً :

ــ((عجباً منك يا « أنييس « أتحذّرينى من هذا ا لشاب ، ولاتحذّرى نفسك منه ؟)) فقالت كاسفةَ البال :

ــ((قبلتُ كل هذا حبَّاً لأبى ، و لسوف أقبل بأكثر من هذا بِرّاً به و بشيخوخته ! !))

و التقيت عَرَضاً فى بعض الأيام بالفتى ((هيب)) و كنت منذ حذّرتنى ((أنييس)) منه قد تراخيت فى لقائه و مودّته ، فحيّانى تحيّة الرجل الهانئ السعيد ، و أخبرنى أنه أصبح شريك والد ((أنييس)) و أنه الآمر الناهى فى كلّ صغيرة وكبيرة من أعمال والدها وثروته ، فاستمعت له صامتاً حتى رأيته قد بلغ منتهى الجرأة والقِحَة حين ختم حديثه و هو يقول :

ــ((و فى نيتى أن أشرّف « أنييس « بطلب يدها !))

و افترقنا و أنا أرثى لحال ((أنييس)) و أستعيد فى ذهنى ما كانت قد أنهَتْه إلىّ من أ نها لن تُحْجِم عن قَبول أيّة تضحية مهما جلّت و كبرت حبَّاً لأبيها ، فقلت فى نفسى : ((إن لم يكن هذا الزواج هو التضحية الكبرى فماذا تكون إذن التضحية ... أمثلُ هذا الفتى الوضيع السيّئ الأخلاق الدميم الخَلْق يكون زوجاً لمثل « أنييس « مَلَكى الحارس ؟ !))

و أخذتُ أقارن بين نذالة هذا الشاب و صفاء نفس تلك الفتاة المتلألئة بحب أبيها و البرّ به...

و مضت الأيام و الأسابيع و أنا قائم بعملى فى مكتب الأستاذين ((سينلو و جوركنيس)) و كانت عمّتى قد خصصت لى مبلغ ثمانين جنيهاً فى السنة فضلاً عن إيجار السكن و بعض النفقات الأخرى. ودعانى يوماً الأستاذ ((سينلو)) إلى زيارته فى منزله الريفى ، وتلطّف فوعد نى بأن يصحبنى إليه و يعيدنى منه بمركبته الخاصّة، فعلمت من الأحاديث التى تبادلناها فى أثناء الطريق أن له ابنه وحيدة تسمى ((دورا)) و أنها قد أتمت دروسها فى بعض المعاهد الفرنسية ، و مالت إلى السكنى فى منزله بالريف .

وصلنا إلى المنزل و اجتزنا حديقته الجميلة ، و دخلنا البهو الكبير فاستقبلتنا فيه الآنسة ((دورا)) و سيدة أخرى فقال الأستاذ ((سينلو)) :

ــ((عزيزتى « دورا « و يا حضرة الآنسة أقدّم لكما السّيد « دافيد كوبر فيلد « .))

ثم مال علىّ وهو يقول مشيراً إلى السيدة الأخرى :

ــ((إن الآنسة صديقة ابنتى و موضع ثقتها .))

و بينما كنت أردّ على التحيّة و شَرَفِ التعرّف ، سمعتُ صوتاً غير غريب عنّى يقول :

ــ((لقد سبق لى أن عرفتُ السيّد « كوبر فيلد « !))

و لم تكن صاحبة الصوت الآنسة ((دورا)) بل صديقتها الآنسة ((مردستون)) ، فقلت بعد أن زالت عنى عوارض الدهشة :

ــ((كيف حالك يا آنسة « مردستون « لعلك فى صحة جيّدة !))

ــ((على أتمّ صحة و سلامة !))

ــ((و كيف حال السيد « مردستون « ؟))

ــ((إن أخى فى أوفر سلامة وعافية... أشكرك.)) فقال الأستاذ ((سينلو)) :

ــ((يسرّنى أن أراك تعرف الآنسة « مردستون « معرفة قديمة !))

فقالت الآنسة ((مردستون)) بلهجة هادئة قاسية :

ــ((إن بينى و بين السيّد « كوبر فيلد « صلةً من النَّسب ... فقد عرفته قليلاً فى طفولته ، ثم فرّقتنا الأحوال .)) فقال الأستاذ ((سينلو)) يخاطبنى :

ــ((لقد تفضّلت الآنسة « مردستون « فقبلتْ أن تكون رفيقة ابنتى و را ئدتها بعد إذ حرمت الأقدار ابنتى « دورا « حنان الأم و عطفها)) .

فحدّقت فى الآنسة ((دورا)) أدرس حركاتها و سكناتها فخيَّل إلىّ أنها لا تشاطر أباها رأيه فى أن تكون الآنسة ((مردستون)) صديقتها و موضع ثقتها ، و لقد نزلت من قلبى أكرم منزلة منذ اللحظة الأولى التى رأيتها فيها ، و حرّكت نبراتُ صوتِها أوتارَ فؤادى فصارت أعزّ أمنيّة لى فى الحياة أن أظفر بيدها و أن تصبح زوجتى .



وكان موضعي إلى مائدة العشاء في جِوارها ، فنَعِمْت بحديثها و بصوتها الساحر الحلو النَّغَمات ، و أعجِبْتُ بكل حركة من حركاتها النبيلة الفتَّانة .

و انتقلنا بعد العشاء إلى البَهْو نسْمُرُ فيه و نتحدّث ، و شغلت الآنسة ((دورا)) أغلب الوقت فى الغناء و العزف على آلة تشبه القيثارة ، فقضيت سهرة جميلة ممتعة لم تزدنى إلا شغفاً بالآنسة ((دورا)) و تعلقاً بجمالها و مواهبها .

و عندما تفرّقنا و ذهب كلٌّ منا إلى غرفته ، استوقفتنى الآنسة ((مردستون)) عند باب الغرفة التى استضافونى فيها ، و طلبتْ إلىّ أن تحدّثنى قليلاً فأصغَيْت إليها تقول :

ــ((لقد جمعتنا الأقدار بعد فِراق ، و مهما يكن من أمر الماضى الذى نحتفظ منه بأسوأ الذِّكْريات ، فلا إخالك إلا موافقاً على أن نسدل عليه ستار النّسيان ، و لا سيّما أننا قد نتلاقى كثيراً بعد اليوم فى هذا المنزل أو فى غيره من منازل هذه الأسرة ، فلا حاجةَ بنا إلى أن نُذْكِى جمْرَ البغضاء الكامن تحت رماد الأيام فى قلبينا ولا إلى أن نوفّر للقوم أسباب الشماتة فينا ...)) فقلت :

ــ((إنى أوافقك يا آنسة « مردستون « على ما تقترحين ، و لكن ثقى أنى لن أنسى أ بداً ما لقيته منك و من أخيك من سُوء المعاملة ، و ما سببّتماه لأمى من حزن و كآبة ...))

و تبادلنا التحية المؤدّبة ، و انفلت كلٌّ إلى الغرفة . و لما لقيت الآنسة

((دورا)) فى الصباح تجول فى أنحاء الحديقة سألتنى مستفهمة :
ــ((أبينك و بين الآنسة « مردستون « صلة قُرْبى وثيقة ؟)) فقلت نافراً :
ــ((كلا يا آنسة .)) و كأنما ارتاحت إلى جوابى فقالت :
ــ((لست أدرى أين عثر والدى على الآنسة « مردستون « فاخترها رفيقةً لى . أتكون مثل هذه العانس الكهلة الدائمة التذمُّر و الشكوى ، رفيقة موافقة و موضع الثقة و الوداد ؟ إن الأصدقاء و النُّدماء يختارهم الإنسان هو نفسه ، و لا يَكِلُ أمر اختيارهم إلى أحدٍ غيره ... أفيجب أن أحْرَم مزيّة التصرّف الحرّ إذا كان القَدَر القاسى حرمنى حَنان الأمّ ؟ !))

فهززتُ رأسى هزّاتٍ خفيفة تأميناً على كلامها ، و قضيت نهار ذلك اليوم و مساءه فى ضيافة ((دورا)) و أبيها ناعماً بأوفر ما ينعَمُ به المرء السعيد من حديث طلىّ ، و زادٍ روحانّى شهّى ، مع أن الآنسة ((مردستون ما كانت تفارقنا لحظة واحدة ... و منذ ذلك اليوم أصبحت أتأنّق فى اختيار ربطات العنق ، و لون القُفّاز ، و صنف القمصان و الحذاء...





٦

خَطَرَ لى ذاتَ يوم أن أزور رفيقاً من رفقاء الدراسة يدعى ((جاك)) ، كنت قد التقيتُ به اتِّفاقاً فى أحد الشوارع ، بعد أن باعدت الأيام بينى و بينه ، فقصّ علىَّ ما لقى من عَنَت الزمان و قسوته ، و دلَّنى على عنوان مسكنه ، و رجا منى أن أزوره لنستعيد معاً ذكريات الطفولة و الحداثة .
و لقد تبيّنتُ من الشوارع و الأزقّة الحقيرة التى اجتزتُها للوصول إليه ، أن الفتى لم يبالغ فى شكواه من بُخْل الدهر و تقتيره عليه .

و قضيتُ مع رفيق الحداثة بعض الوقت نستعرض ذكريات الماضى ، حتى تطرَّقْنا إلى حديث الحاضر ، فعلمت منه أن ضيق ذات يده حالَ

دون أن يلتحق بمكتب أحد المحامين ليقضى فيه مدة التمرُّن ، فاضطُّرَّ إلى الالتحاق بوظيفة كاتب فى مكتب أحد وكلاء الأعمال ، إلى أن يفتح الله عليه فيدّخر مبلغ الرسم المطلوب ، و اكنه يائس من الوصول إلى تلك النتيجة السعيدة .

و حدّثنى فيما حدثنى به أن المرء إذا اعتبر بمصائب غيره هانت عليه مصائبُه ، و أخبرنى أن الأسرة التى تقطن الطبقة الأرضية من المبنى المقيم هو فيه ، أسرةٌ تتألّف من زوج و زوجته و عدد كبير من الأولاد ، و أن ربّ الأسرة لا يكاد يستطيعٍ أن يقوم بأوَد زوجته و أولاده ، فقد تألَّب عليه الدهر يحاربه حرباً ضروساً فى رزقه و رزق عِياله ، و لا تراهم مع ذلك إلا ضاحكين باسمين للحياة ، كأنهم منها على سعةٍ و يُسْرٍ . فقلتُ للرفيق ((جاك)) بعد أن سمعت حديثه :

ـــ((كنتُ عرفتُ فيما مضى أسرةً على هذا النحو الذى وصفت ، فربُّما كان يتعاطى الدَّلالة فى مختلف الأصناف ، و يزاول متابين المِهَن ، و لكن لم يظفر بالرّزق إلا قطرةً قطرة ، و كان هو و جميع أفراد أسرته مع ذلك لا يتذمّرون و لا يتأفّفون ، بل يقابلون عَبْسَة الزمن ببسمة الرضى و الاستسلام ، و لقد كنتُ أظنّ أنها أسرةٌ لا نظير لها بين البشر ، و ها أنت ذا تحدّثنى عن شبيه لها و نظير .)) فقال ((جاك)) :

ـــ((لو عرفتَ ربَّ هذه الأسرة و حدَّثته لأمَّنْت على كلامى ، و

لرأيته أفقرَ و أظرف من ربَّ الأسرة التى تحدّثنى عنها ، فواللّه ما رأيت السيّد « مكوبر « مرّةً و هو يضحك و يمزح ، على ضَنْكه وضيق ذات يده ، إلا التمستُ من حاله أبلغَ العِظات و العِبَر ، على الرضا و القناعة و الإيمان باللّه .)) فقلت له مدهوشاً :

ــ((أتقولُ أنه يدعى « مكوبر « ؟ إن الرجل الذى أعرفه هو أ يضاً يدعى « مكوبر « ...))

و لم أكد أتمّ كلامى حتى قُرِع الباب ، و دخل منه جار الرفيق، و كان قد جاء هو و زوجته يتفقّدان شؤون صاحبى فصحنا معاً :

ــ((أهلاً و سهلاً بالسيد « مكوبر « و زوجته !)) و أضفت أنا قائلاً :

ــ((ليس فى الدنيا إلا « مكوبر « واحد رضىّ الخلق كبير النفس . . .))

وأقبلتُ عليه أصافحه وأصافح زوجته مصافحةً حارَّةً ، وكان سرورهما بلقائى لا يوصف ، وعندما استفسرت من الزوجة عن أحوالهما ، أخبرتنى أن زوجها يتعاطى الآن الدَّلالة على الثمار ولكنه عمل لايُدرُّ عليه إلا أقل من الكفاف .

و تركتُ القوم بعد فترة قصيرة ، و ودّعتهم و عدتُ إلى منزلى، فطالعتنى فيه رسالةٌ من ((بيجوتى)) تَنْعى إلىّ فيها زوجها ((بركيس)) و تخبرنى فيها أنها قادمة إلى ((لندن)) لقضاء بعض الشؤون ، فشقَّ

عليَّ مصابُها و استقبلتها بعد أيّام قلائل معزيّاً و عدنا ذات يوم إلى مسكنى ، فدهشت كلَّ الدَّهَش إذ وجدت فيه عمَّتى و السيّد ((ديك)). وكانت عمّتى جالسة فوق تلٍ من الحقائب فى حين كان السيد ((ديك)) واقفاً بجانب عدد من الصناديق الصغيرة فقلتُ صائحاً :

ـ((ما هذه المفاجأة السا رّة يا عمّتى العزيزة !))

و تبادلتُ و إياها العِناق و القُبُلات ، ثم صافحت السيّد ((ديك)) مصافحةً طويلة . أما ((بيجوتى)) وقفت ذاهلة من ذلك اللقاء الغريب، و على ذلك النحو الشاذّ ، و لكنها نفضت عنها الذهول و اقتربت من عمّتى و السيّد ((ديك)) تحيّييهما .

و بعد صمت قصير التفتت إلىّ عمّتى و قالت فى جدً وخَطَر :

((«دافيد » هل اكتسبتَ مزيداً من الثقة بنفسك ؟)) فقلت :

ـ((أرجو ذلك يا عمّتى .)) فقالت و هى مقطّبة الحاجبين :

ـ((أواثقٌ أنتَ ممَّا تقول ؟)) فقلت :

ـ((أعتقد أ نى جِدٌّ وا ثق .))

فنظرتْ إلىَّ نظرة طويلة و قالت :

ـ((أتدرى لماذا ترا نى جالسةً فوق حقائبى ؟)) فقلت :

ـ((كلا يا عمّتى .)) فقالت :

ـ((لأنّ هذه الحقائب هى كلٌّ ما بقى لى فى هذه الحياة...

ويسوءنى أن أنْهِى إليك يا عزيزى أن الدّهر قد رمانى بالدّمار والخراب، ففقدتُ كل ما أملك .))

فلو أن عاصفةً انقضَّتْ على المنزل ، و كنسته إلى النهر الجارى تحته ، لما كانت أعنفَ و لا أشدَّ أثراً فى نفسى من هذا الذى سمعته. ثم تابعت عمّتى كلامها و قالت :

ــ ((نعم يا عزيزى « دافيد « لقد فقدتُ كل شئ إلا ما جمعت فى هذه الحقائب و الصناديق ، وإلا المنزل الصغير فى الريف و قد عرضته للإيجار .)) ثم التفتتْ إلى ((بيجوتى)) و قالت :

ــ((دبّرى لنا أمكنه نقضى فيها هذه الليلة توفيراً للنفقات ، و غداً سنتدبّر أمرنا .))

فهالنى وقع الكارثة ، و رثيتُ لحال هذه العمّة الطيبة القلب العنيفة المظهر ، فاقتلعتنى من وجُومِى حين سمعتها تقول لى :

ــ((على الإنسان أن يتحمل تقلُّب الزمان بشجاعة و صبر يا ولدى ، و عليه أن يواجه المِحَن بغير ما جزع و لا انخذال.))

فنظرتُ إلى السيد ((ديك)) فوجدته ساهماً حيناً و باسماً حيناً آخر ، كمن لا يدرى بمدى الكارثة التى أحاقت بعمَّتى ، ثم أفقتُ من ذهولى و رأيتُ من واجبى أن أظهر التجلُّد و الشجاعة ، و أن أرطّب خاطر عمّتى و أهوّن عليها وطأة الفاجعة .



لم يغمُضْ لى جَفْن فى تلك اللّيلة اللّيْلاء ، و أنا مؤرَّقٌ ساهد ، حتى إذا طلع الفجر ارتديتُ ملابسى فى خفّة و رشاقة ، و تسلَّلت من المنزل ، و شرعت أطوف بالشوارع و أذْرَعُها شارعاً شارعاً ، وذهنى هائمٌ فى مهَامِهِ التفكير إلى أن حان موعدُ الذَّهاب إلى العمل، فتوجّهت إلى المكتب و استأذنت الأستاذ ((سينلو)) فى الدخول عليه لأفاتحه فى أمر مهمً ، و كنتُ قد قرَّرت أن أطلعه على الكارثة التى حلَّت بعمَّتى و أَن أطلب إليه فسخ عقد العمل المبرم بينى و بينه ، على أملِ استرجاع المبلغ الذى نقدَتْه إياه عمتى و قدره ألف جنيه .

دخلت عليه فحيّيْتُه و بادرته قائلاً :

ــ((يعزُّ علىّ يا سيّدى أن أنهى إليك أنى تلقيت من عمّتى أنباء سيئة .)) فقال غير حافل :

ــ((أرجو أن لا تكون قد أصيبت بداء الفالج !)) فقلت :

ــ((لم تُصَبْ يا سيّدى بداء و لا علَّة ، و إنما أصيبت بخسارة فادحة فى مالها ، فأصبحتْ لا تكاد تمتلك شيئاً .)) فصاح الأستاذ مدهوشاً :

ــ((إنك تدهشنى يا « دافيد « !)) فقلت :

ــ((إن ما أقوله هو الحقيقة بعينها ... و لهذا جئتُ أسألك يا سيّدى أن تتفضَّل علىّ فى محنتنا هذه بفَسْخ العقد المبرم بيننا عن مدّة التمرُّن فى مكتبك، و استرجاع المبلغ المدفوع و لو مخفوضاً منه بعض الشئ ،

فعمّتى أحقُّ الآن بهذا المبلغ ، و اللّه يعلم كم يكلفنى هذا الطلب ، فمستقبلى كله معقودٌ عليه .))

واجهت الأستاذ بهذا الكلام و أنا أعلم أن تنفيذ مثل ذلك الطلب سيحرمنى المضىّ فى طريق المحاماة ، بل سيرمنى بعيداً عن ((دورا)) و يقفل بيننا باب اللقاء . ففكّر الأستاذ ((سينلو)) قليلاً ثم قال :

ـ((لو كنتُ وحدى المتصرف فى الأمر لأجبتك فى الحال إلى مطلبك ، و لكن هناك شريكى الأستاذ « جوركنيس » و لا إخاله يقبلُ مثل هذا الطلب .))

فذهبتُ إلى الأستاذ ((جوركنيس)) و عرضتُ عليه أمرى ، فرفض كلَّ الرفض ، و ما كنت لأتوَقَّع منه غير ذلك ، فمهمّة هذا الشريك ، على ما فهمته فيما بعد ، هى أن يرفض كلّ ما يحيله عليه شريكه من مطالب لا يريد تلبيتها .

و خرجتُ من المكتب فى همٍ مُقْعِدٍ مُقِيم ، فقابلت فى طريقى ((أنييس)) فأخبرتنى أنها علمت بمجئ عمتى إلى ((لندن)) فهى ذاهبة لتحيّتها ، فسرنا معاً إلى المنزل ، و فهمت منها فى أثناء الطريق أن عمتى بعثت إليها برسالة قصيرة تنبئها فيها أنها أصيبت بمكروه ، و أنها راحلة إلى ((لندن)) . دخلنا المنزل فألقيتُ عمّتى وحدها ، فحيّيناها و جلسنا إلى جوارها ، فأخبرتُها بما سعيتُ من أجله فابتسمت و قالت :

ـ((إنى فخورةٌ بك يا « دافيد » و لكننى كنت أوثر أن لا تحاول تلك المحاولة حتى لا أكون عقبةً كأداء فى طريق مستقبلك ... و الآن استمع لى يا « دافيد » و استمعى لى يا عزيزتى « أنييس » أخبركما بأسباب الكارثة التى منيتُ بها .))

و شرعتْ عمّتى تقصّ علينا قصّتها و تقول :

ـ((كنتُ أستغلّ ثروتى فى أول الأمر فيما أملك من مزارع ، و كنتُ قد عهدت فى إدارتها و استغلالها إلى وكيلى أبى « أنييس » فاقترح علىّ يوماً أن أبيع كل ما أملك من مزارع ، و أستثمر مالى فى التسليف على الرهون ، فجنيتُ من ذلك رِبْحاً لا بأسَ به ، ثم فُكَّت تلك الرهون و أصبح المال متوافِراً فى يدى و لا أدرى كيف أستثمره ، فاشتريتُ به كله دون استشارة وكيلى عدداً ضخماً من أسهم شركة جديدة من شركات مناجم الفحم ، و علَّلت نفسى بالربح الجزيل وفْقَ ما مَنَّتْنا به الإعلانات الضخمة التى نشرت عن هذه الشركة الجديدة ، و كنوز الأرض التى سوف تستغلها ، فاتضح لى بعد قليل أن الأرضين التى اشترتها الشركة ، لا أثر فيهما للفحم و لا لغُباره ، فأفلست الشركة و انهارت الآمال ، و عمّت الكوارث بين المساهمين، و ذَهَبَ المالُ ضياعاً ... هذه هى قصّتى و إنها لقصّة مفجعة ، و من الخير أن نطويها فلا نعود للحديث عنها ...))

و رأيت الفتاة ((أنييس)) شديدة الإصغاء و الانتباه لكلام عمّتى ،

بل رأيتها فى بعض اللحظات تضطرب اضطراباً خفيفاً ، و يُمْتَقَع لون وجهها ، غير أنها عادت إلى سكونها و صفاء وجهها قبل أن تفرغَ عمّتى من روايتها ، و أغلب الظنّ أنها خشيتْ أن يكون والدها سببَ نكبة عمّتى ، لأنه وكيل أعمالها و مدير ثروتها . فلم أتمالك بعد َسماعى تلك الرواية الأليمة إلا أن أقول :

ــ((و لكن يا عمّتى علينا أن ندبّر أمر معاشنا .)) فقالت :

ــ((حَسْبُنا المورد الذى يأتينا من إيجار منزلى فى الريف ، فقد يغلّ علينا مئة جنيه فى العام.)) فقلت :

ــ((أبعد عزّك الباذِخ يا عمّتى تكتفين بمئة جنيه فى العام ؟ حبّذا لو ...)) فقاطعتنى مغضبة و قالت :

ــ((حبّذا لو ماذا ؟ إيّاك أن تفكّر فى الأنخراط فى سلك البحرية أو الجندية أو الالتحاق ببعض الأعمال التّافهة ... لقد أردتَ أن تكون محامياً و يجب أن تصبح محامياً .)) فاشتركت ((أنيبس)) فى الحديث و قالت :

ــ((أعندكَ بعض أوقات الفَراغ يا « دافيد « ؟)) فقلت :

ــ((عندى كثيرٌ من أوقات الفَراغ ، فالعمل فى المكتب لا يستغرق وقتى كله .)) فقالت ((أنيبس)) :

ــ((ألكَ ميلٌ إلى الأعمال الكتابية أم تأنف منها ؟)) فقلت :

ــ((لا أنف من أىّ عمل شريف كان !)) فقالت ((أنيبس)) :

ـــ((لعلك تذكر مدرساً قديماً فى مدرستك هو الأستاذ « سترونج « ؟))
ـــ((أذكره جيّداً و أذكر أ نه كان منهمكاً فى إعداد معجم فى اللغة اللاتينية .))

ـــ((لقد هجر التدريس و جاء يقيم « بلندن « ليتفرغ لمعجمه ، وقد طلب من والدى أن يبحث له عن شاب يعاونه فى الأعمال الكتابية ، و تكفيه من تلك المعاونة ساعتان فى الصباح المبكر و ساعتان فى المساء كل يوم ، و أعتقد أنه سوف يُسَرُّ كل السرور إذا كان ذلك الشاب المعاون أحد تلاميذه القدماء ... و هكذا يعود عليك ذلك العمل ببعض المال)). فصفّقتُ طرباً و أقبلتُ على ((أنييس)) أشكرها وأقول لها جذلانَ فَرحاً :

ـــ((ألم أقل لك يا « أنييس « إنك مَلَكى الحارس ؟ ! ...))

و قبل أن تَنْبِس عمّتى ببِنت شَفَة ، قُرِعَ الباب و دخل منه والد ((أنييس)) يصحبه الشاب ((هيب)) و كانا قد قدما لزيارة عمّتى و تحيّتها ، بعد إذ عرفنا أنها فى ((لندن)) .

و بدا لى والد ((أنييس)) رجلاً قد بدأت الشيخوخة تدبُّ فى أضلاعه ، و تفقده ما عرفته فيه من صَلابة الرأى و صَواب الحكم ، فى حين بدا لى ((هيب)) و هو واقفٌ إلى جانبه أنه عصاه التى يتّكئ عليها ، و العينان اللتان يرى بهما ، و الذهن الذى يصرّف الأمور بَوحيْه ، فتذكّرت

كلام ((أنييس)) عن هذا الشيطان الذى استولى على إرادة أبيها بَلْهَ التصرُّف فى ثروته .

و ردّت عمّتى التحية بأحسن منها ، و قالت تخاطب والد ((أنييس)) :

ــ((لقد تدهورتْ بى الحال يا سيدى !)) فقال والد ((أنييس)) :

ــ((يشقُّ علىّ يا سيّدتى أن أعرفَ هول النكبة التى أصابتك ، فثقِى أنى أشاطرك الأسى على ما فقدت .))

و سبق ((هيب)) عمّتى إلى الكلام فقال و هو يحدجنى بنظراته :

ــ((ليس المالُ هو كل شئ فى الحياة يا سيّد تى ، فالمرء بمواهبه و صفاته لا بماله .))

و أدركتُ أنا من هذا التعريض مبلغ ما فيه من صَلَف ، و كأنه أراد أن يقول لى إن مواهبه و صفاته هى التى تجعله أهلاً لأن يطلب يد ((أنييس)) ، غير أن عمّتى لم يعجبها هذا الكلام فقالت له بلهجة جافّة صارمة :

ــ((ومن ذا الذى زَعَم منّا أن المال هو كل شئ فى الحياة ؟ إن الله قد قسم المواهب بين عباده فلا تظننَّ أنه سبحانه و تعالى قد خصَّك منها بما لم يخص به غيرك .)) فقال ((هيب)) و قد كظم غيظه :

ــ((عفواً يا سيّدتى ما قصدتُ إلى إساءتك و لا إلى إثارتك ، وإنما قصدتُ مواساتك .)) فقالت له بلهجتها الجافّة نفسها :

ــ((شكراً لك .))

و نهض والد ((أنييس)) بعد قليل و نهض معه ((هيب)) يريدان الانصراف فاستأذنت ((أنييس)) والدها فى البقاء فترة قصيرة أخرى مع الآنسة ((تروتوود)) و السيّد ((دافيد)) فسمح لها و لم يستطع ((هيب)) أن يوعز إلى والدها بغير ما رغبت فيه الفتاه ، فخرج معه يتعثَّر بأذيال الخيبة .

و قامت عمّتى إلى بعض شأنها و مشيتُ أنا و ((أنييس)) إلى النافذة نسرَّح النظر معاً فى الأفق البعيد و نحن ساكتان ، و التفتُّ إليها بعد حين فرأيتُ عينيها مغرورقتين بالدموع ، فكفكتهما ثم أخذتْ تحدّثنى عن ((دورا)) و تسهب فى الثناء على جمالها و كمالها ، و تلقى على تلك الفاتنة التى سحرتنى أضواءً من صَفاء نفسها و طهر سَريرتها .





٧

لا أكذبُ اللهَ إن نكبة عمّتى قد هدَّتْ ركِنى و قلبتْ أحلامى رأساً على عَقِب ، غير أننى آليتُ على نفسى أن لا أظهرَ لعمَّتى فى مظهر الجاحد العاق ، ففَضْلُها السابق علىَّ يقتضينى أن أعمل آناءَ الليل و أطرافَ النهار ، فى غير ما مَلَلٍ و لا سأم ، لأثبت لها أنى الفتى المقدام الذى لا يخيفه العمل الشاقّ . كان علىَّ أن أحملَ فأس الحطّاب ، و أشقّ لى طريقاً فى غاية المصاعب التى تكتنفنى أشجارها من كل جانب ، و تسدّ على السُّبل .

كنتُ على مثل هذا العزم عندما سرتُ فى أصيل اليوم التالى إلى

منزل الأستاذ ((سترونج)) و لمحتُ فى أثناء السَّير بيتاً صغيراً للإيجار ، تحيط به حديقة منمنة ، فذكرتُ ((دورا)) و تمنّيت على الله أن يجمعنى بفاتنتى ((دورا)) و لو فى مثل هذا المنزل الصغير ، فهناءةُ الزوجين فى الحياة مَبْعَثُها القَلب لا القصورُ المرَّدة و لا فاخرُ الرَّياش ، ثم صدمتنى الحقيقة الرّاهنة ، فتابعت مسيرى إلى منزل الأستاذ ((سترونج)) فاستقبلنى أحسن استقبال ، و رحّب بى خير ترحيب ، و سرّه أن يرانى فتى يافعاً بعد إذ عرفنى طفلاً صغيراً .

و بعد هذه المقدّمة من الترحيب و التأهيل التفتَ إلىّ جادَّاً و قال :

ــ((إن كلمتك العاجلة التى بعثتَ إلىّ بها أمس ، و ذكرتَ لى فيها أنك توَدّ معاونتى فى أعمالى ، قد أدخلتْ على قلبى سروراً لا يوصف ، فما زلتُ أذكر رضىّ أخلاقك ، و أدبك الجمّ ، و لكن هناك أمر يشغل بالى يا عزيزى « دافيد « أفليس حراماً أن تشغل ربيع حياتك بعمل لا يدرُّ عليك إلا مئة جنيه فى العام ؟)) فقلت له :

ــ((إن هذا المبلغ يضاعف موردنا يا سيّدى الأستاذ .))

ثم رويتُ له نبأ النكبة التى أطاحت بعَمَّتى ، وكأن ضميره لم يسترح إلا عندما علم أنى اخترت المحاماة لى مهنة ، و أن العمل الذى سأقوم به عنده إنما هو عمل ثا نوى ليس إلا ... فضلاً عن أنه عملٌ علمىّ يأسرنى ويستهوينى ، فارتاح الأستاذ لبَيانى ، و اتَّفقنا على أن أعمل عنده خمسة أيام فى

الأسبوعٍ ، و أستريح فى يومى السبت و الأحد ، و أن يكون العمل مقصوراً على ساعتين فى الصباح من السادسة إلى الثامنة و ساعتين فى المساء من الثامنة إلى العاشرة ، و قررنا بدء العمل فى صباح غدٍ .

و منذ صباح اليوم التالى ، أخذتُ أختلف إلى منزل الأستاذ ((سترونج)) فى المواعيد المضروبة ، و كنتُ سعيداً بقضاء عدّة ساعات بعمل غير عملى الأصلى ، فكبرتُ فى عين نفسى ، وتخيلتُنى كبرتُ أيضاً فى عين ((دورا)) فقد كان خيالها لا يفارقنى فى غدوَّى ورَواحى ، كأنه يطلب منى المزيد من الجهد فى سبيل الفوز بها شريكة حياتى .

و تقاضتنى حالى الرّاهنة أن أقتصد فى النفقات ، فأضربتُ عن شراء الأغذية الفاخرة ، و عن استعمال الصابون المطيّب و الماء المعطَّر، و بعتُ بعض ملابسى الفخمة و لو بخسارة ، فما وجدتها تتّفق و حياة التقشُّف التى أحياها .

و كنت مع كل هذا أ توقُ إلى شغل بعض ساعات أخرى من فَراغى بعمل جد يد ، فذهبت يوماً أزور رفيق الدراسة الفتى ((جاك)) فسألته أن يدلّنى على السبيل الذى أستطيع به أن أنشرَ فى الصُّحف مداولاتِ البرلمان ، فثبَّطَ عزيمتى و قال لى لابُدّ لذلك من معرفة الاختزال ، ويصعب على المرء أن يُلِمّ بهذا العلم قبل مضىّ سنتين أو ثلاث سنوات ، و صرفنى عن هذه الغاية . أما أنا فما رأيتُ فى هذه العقبة إلا شجراتٍ جديدة

من غاية الحياة ، يجب أن أحطمها بفأس الجهد و العمل ، لأصل بعدها إلى ((دورا)) فشكرت صديقى و ودّعته و قد صمَّمتُ فى قَرارة نفسى أن أبدأ بتعلم الاختزال على الفور ، فمضيت إلى بعض المكتبات و اشتريتُ كتاباً فى هذا الفن ، و أخذت فى كل ساعة من ساعات فراغى ألتهمُ أصوله و قواعده ، حتى بدأت ألمّ به ، فأخذت أتمرّن على تطبيقه فى ساحات المحاكم ، فأختزل المرافعات و أعود إلى المكتب لأكتبها ثانية باللغة الفصحى المعروفة و لكنها كانت أقرب إلى اللغة الصينية منها إلى اللغة الإنجليزية ، فعرفت أىّ جهد يتطلب منى تعلم فن الاختزال على غير أستاذ .

و فى إبَّان هذا الجهد و الجِهاد ، تلقيت رسالة من السيّد ((مكوبر)) يخبرنى فيها أن الحظّ قد بدأ يبتسم له ، وأنه كان على يقين أن الحظ سوف يبتسم له يوماً ، و ينبئنى أنه و أسرته سيغادران العاصمة أو بابل الحديثة كما سمّاها ، و سيقيمان فى قرية نائية من قرى جزيرتنا السعيدة ، و سينهض هناك بعمل يتّفق و مواهبه و يدرّ عليه أخلاف الرزق ، و يطلب إلىّ فى ختام تلك الرسالة أن أسعده بزورةٍ نتبادل فيها تحية الوَداع عشيّة يوم الرحيل.

و فى الموعد الذى ضربه لى كنت أنا و رفيق الدراسة ((جاك)) فى منزل السيّد ((مكوبر)) نحيّيه و نحيِّى زوجته و أبناءه ، و نتمنَّى لهم التوفيق و الهناء فى مستقرّهم الجديد . و بعد أحاديثَ متشعبَّة قالت الزوجة :

ـ((كنتُ على يقين من أن القدر سيبتسم يوماً لزوجى و يَقْدُر مواهبه حقَّ قدرها ...)) و عقَّب السيّد ((مكوبر)) على كلامها فقال فى مَرَحه المعتاد و لهجته الباسمة التى لا تفارقه :

ـ((إن القُفَّاز الذى رميتُه فى وجه المجتمع ، قد تلقّاه صديقنا ((هيب ((هذا الرجل الكريم النفس ، الثَّاقب الذهن ، الذى يَقْدُر قِيمَ الرجال فَعَهد إلىّ أن أكون وكيله فى تلك القرية التى سنشدّ إليها الرحال غداً .

صحيح أنه لم يجعل لى راتباً ضخماً ، و لكنه وفَّى عنِّى جميع الديون ، و أنقذنى ممَّا كنت فيه من ار تباك مالىّ ، و لسوف أرهن له ذكائى و نشاطى و أجعلهم فى خدمته .))

فكرّرنا أنا و صديقى ((جاك)) الدُّعاء له و لأسرته بتحقيق أقصى الأمانى ، و انصرفنا و فى نفسى أكثر من سؤال عن هذا القَدَر الذى جمع ((هيب)) إلى ((مكوبر)) .

و استمرَّت حياتى الجديدة على النحو الذى ذكرت ، و كان من حسن الحظ أن عمّتى قد استأجرت المنزل الذى أقطن فيه لمدة سنة ، و دفعت أجرة السكن سَلَفاً ، و لم يمض من تلك المدة إلا أشهر قليلة ، و لم تشأ عمّتى أن تعتمد على مورد السيّد ((ديك)) ، فقد عزّ ويعزّ عليهاأن تكون مدينةً لأحد . و لمَّا كان منزلى لا يتسع لكل هؤلاء الهابطين عليه ، فقد استأجر السيّد ((ديك)) غداةَ وصوله إلى ((لندن)) منزلاً بالقرب

من منزلى ، يقيم فيه ليلاً ، و ينضم إلينا نهاراً .

و جاء اليوم الذى رأت فيه ((بيجوتى)) أن تعود إلى قريتها ، فأوصلتها إلى مكتب السفر ، و انتظرتُ حتى أخذتْ مكانها من المركبة العامة ، فقالت لى و ا لدّموع تتلألأ فى عينيها :

ـ((الآن يا عزيزى « دافيد « أودّعك و أستودعك الله ، وأرجو أن تعلم أنك إذا احتجت إلى بعض المال فى أثناء تمرنّك على المحاماة فأحق من يقرضك إياه هى خادمتك العجوز «بيجوتى» .)) ثم همست فى أذنى قائلة :

ـ((و يوم تتزوج الآنسة « دورا « فأبلغنى حتى أحضر و أرتب لك منزل عرسك ... هذا إذا سمحت لى بذلك .))

أى حُلْم هذا الذى تحدّثنى عنه ((بيجوتى)) ؟ إنه الحلم الذى تلاشى و أضمحلّ فى يقظة النكبة . لقد ارتبط قلبى و قلب ((دورا)) منذ اللحظة الأولى برباط الحبّ ، و تعاهدنا بعد ذلك على الزواج ، وترّرنا أن ننتظر الفرصة السانحة لنرفع الأمر إلى أبها و نظفر برضاه ، فالتقاليد الإنجليزية تحتّم الحصول على رضا الوالد و موافقته . كان هذا قبل أن تصاب عمتى بكارثتها ، و كنت قد تريثتُ فى إبلاغ ((دورا)) بنبأ الكارثة متعلّلاً بما قد تفاجئنى به الأيام من رأى موفق، و لكن عبثاً تريَّثتُ و انتظرت ، فحالى لا تسمح لى بالزواج ، و والد ((دورا)) لن يرضى أن تزف ابنته إلى فقير مُدْقع .

كان اليوم يوم سَبْت ، و كنت سألقى ((دورا)) فى السّهرة عند بعض الأصدقاء ، فرأيت من واجبى أن أطلعها على حالى و أن أحِلَّها من عهدها .

و التقينا فى مساء ذلك اليوم ، و انتحيت بها ناحية ، و سألتها هل توافق على أن تتزوج شحّاذاً ، و تطلعت إلىّ بعينيها الحلوتين مدهوشة مذعورة و علمتُ أنى لم أكن كَيِّساً فى إبلاغها النبأ على تلك الصورة ، فالشحّاذ فى ذهن العذارى البريئات من مثل ((دورا)) لا يتمثَّل لهن إلا رجلاً مجعّد الوجه ، يرتدى الأسمال ، و يمشى على عُكّاز ، فرددتُ على دهشتها و ذُعْرها وأنا أقول فى جدّ و أَسَف :

ــ((يا عزيزتى « دورا « إنى رجلٌ هَدّ الخرابُ رُكنه !))

فدمعت عيناها و قالت وهى تضطرب :

ــ((لا تكن قاسى القلب يا « دافيد « !)) فقلت :

ــ((عزيزتى « دورا « أنها الحقيقة بعينها ... وإن الواجب يقتضينى فَسْخَ عهد الخطبة بيننا .))

ثم رويت لها القصّة بحذافيرها ، فلم تشأ أن تسمع ، و لا أن تفكّر ، و لا أن تتدبّر الأمر و تقرنى على مسلكى ، فاكتفت بأن تردّد على مسمعى :

ــ((أنت قاسى القلب يا « دافيد « ! أنت قاسى القلب يا « دافيد « !))

وعدت بعد تلك السهرة مشتَّتَ الأفكار حزينَ الفؤاد ، فاستيقظت فى الساعة الخامسة صباحاً ، كعادتى فى نظام حياتى الجديدة ، و مضيتُ

إلى عملى عند الأستاذ ((سترونج)) ثم فى مكتب الأستاذ ((سينلو)) .

و مرّ على نحوٌ من أربعة أشهر فى حياتى الرتيبة الموزعة بين العمل و دراسة الأختزال ، حتى رأيتنى قد ألمت بهذا الفن الإلمام الكافى ، فشرعت أذهب إلى مجلس النواب و الشيوخ ، و ألتقط خطب الأعضاء و أختزلها طبقاً للقواعد التى تعلمتها ، ثم أقارنها بما ينشر منها فى الصحف ، فإذا اختزالى صحيح ، و إذا فؤادى يهتزُّ طرباً من هذا النجاح .

و شاهدتُ فى أحد الأيام الأستاذ ((سينلو)) فى رواق من أروقة مجلس النواب ، و قد استند إلى الحائط محتقنَ الوجه ، و هو يشير بيده إشارات غريبة ، فأدركت أنه مصابٌ بنوبة من نوبات الصداع التى تعاوده حيناً بعد حين .

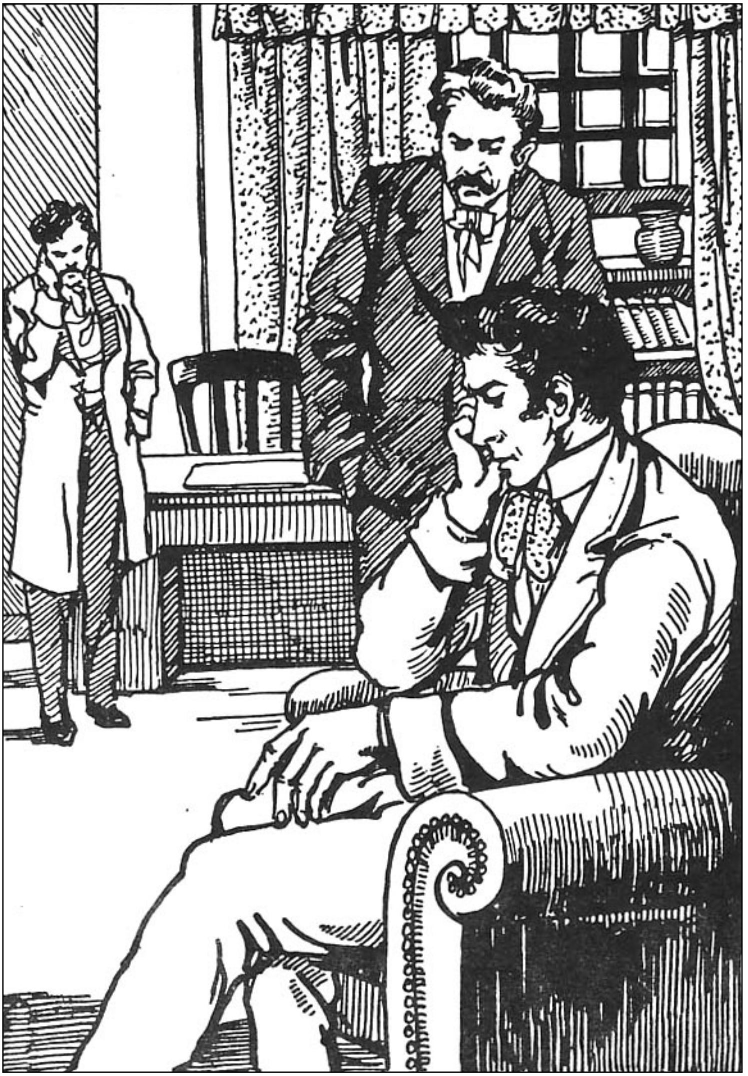
و لشدَّ ما عجبتُ فى صباح اليوم التالى ، عندما ذهبتُ إلى عملى فى مكتب الأستاذ ((سينلو)) أن أرى الكتبة و المحامين واجمين ساهمين ، فاقترب منّى أحدهم و قال :

ــ((يا للمصيبة الكبرى يا سيّد « كوبر فيلد « !)) فصحتُ فيه مستفهماً و قلت :

ــ((ماذا حَدَث ؟ أية مصيبة كبرى تتحدّث عنها ؟)) فقال :

ــ((الأستاذ « سينلو « !)) فضقتُ ذرعاً به و قلت :

ــ((ما خطبُ الأستاذ « سينلو « ؟)) فقال :



ـ((إنه مات !))

فشعرتُ أن الأرض تغورُ تحت قدمّى ، فاستندت إلى ذراع أحد الزملاء ، فأجلسنى على مقعد و فكَّ عنّى ربطة العنق ، و أخبرنى أن أستاذنا ((سينلو)) قد مات فجأة ليلة أمس .

و شُيَّعت جنازةُ الراحل ، و قدمت أصدق العزاء لابنته ((دورا)) ، و تولى شريكه الأستاذ ((جوركنيس)) ترتيب أوراق الفقيد الخاصة و تنظيم شؤونه ، فبدا أن المسكين الراحل كان فى فوضى مالية لا مثيل لها ، فما كان يعرف ماذا يكسب و لا ماذا ينفق ؟ و اتضح أنه أنفق أموالاً ضخمة فى الفوز بعضوية مجلس النواب ، و أنه ليس على شئ كبير من الثراء ، فلو صُفَّى موقفه ، و دُفعت الديون التى عليه ، لم يبقى للمسكينة ((دورا)) إلا أقلّ من ألف جنيه .

و تمَّت التصفية ، و بيع المنزل الريفى و رياش منزله ((بلندن)) ، و اضطُّرَّت ((دورا)) إلى مغادرة العاصمة و السُّكْنى عند عمّة لها عجوز كانت تقطن فى إحدى الضواحى .

و تقهقرت أعمال مكتب الأستاذين ((سينلو و جوركنيس)) من سئ إلى أسوأ ، و ضاق العمل فيه ، فأسفتُ كل الأسف على مبلغ الألف جنيه الذى ذهب مع الريح ، دون أن أعوَّضَ عنه بتمرُّنٍ واسع مفيد .

ورأيتُنى ذات يوم أسيرُ فى اتجاه منزل ((أنييس)) فدخلته ،

فخفت ((أنييس)) لاستقبالى فرحة مستبشرة فقلت لها :

ـ((كيف حالك يا عزيزتى « أنييس » لقد مضى علينا زمن طويل لم نتقابل فيه .)) فقالت ضاحكة :

ـ((لقد تقابلنا منذ أقلّ من شهر يا عزيزى « دافيد » !)) فقلت :

ـ((ربما . و لست أنسى أنى تعوّدتُ أن ألجأ إليك فى الملمّات، وأن ألتمس لديك الرأى الثّاقب .)) فتبسّمت صامتة و قالت :

ـ((مع أنه لا يعوزنى الذكاء و لا صدق الحكم على الأمور ، ولكننى أشعر بالارتياح و الرضى ، و بتخفيف أعباء الحياة عن كاهلى عندما أكون فى حضرة مَلَكى الحارس .)) فقالت :

ـ((كلَّى آذانٌ مصغية إليك يا عزيزى « دافيد » .))

فقصَصْت عليها ما كان من أمرى و أمر ((دورا)) لمَّا طلبتُ منها فَسْخ عهد الخطبة ، ثم أخبرتها بالنكبة التى ألّمت ((بدورا)) فى وفاة والدها و فقد ثروتها ، و ذكرتُ لها أنى متردَّد حائر فى الموقف الذى أقفه منها فى هذه الأيام .

فغمرتنى ((أنييس)) بنظرة طويلة تخفى وراءها ألف معنى و معنى و قالت :

ـ((أرى أن تكتب إلى عمتها و تطلب منها أن توجَّهك فهى تحلُّ اليوم محلَّ والدها .))

فأحسستُ أنى تخفَّفت من عبء ثقيل كنت أرزَخُ تحته ، فودّعتها شاكراً ، و عدت إلى المنزل فرأيت عمّتى والسيد ((ديك)) مستسلمين إلى مناقشة حادّة فتركتهما و شأنهما و جلست أكتب الرسالة التى قرّرت أن أبعث بها إلى عمة ((دورا)) فلما انصرف السيّد ((ديك)) إلى بيته ، أطلعت عمّتى على ما جرى من حديث بينى و بين ((أنييس)) و قرأت عليها الرسالة التى كتبتها فوافقت عليها ، فأودعتها صندوق البريد و بِتُّ أترقَّبُ وصول الجواب .

و ما هو إلاّ يومٌ بعضُ يوم ، حتى جاءنى جواب العمّة تدعونى إليها لمباحثتى فيما تضمّنته الرسالة ، و تضرب لى يوم كذا موعداً لذلك ، و تخيّرنى فى أن أصطحب معى شخصاً من ثقاتى ، فاقترحتْ علىّ عمّتى فى أن أصطحب معى صديقتى ((أنييس)) فرضيت ((أنييس)) بذلك و كنا فى الموعد المضروب فى حضرة ((دورا)) و عمّتها .

و ارتأت عمّة ((دورا)) أن نترك للزمن تقرير مصيرى و مصير ((دورا)) ، على أنّها سمحتْ لى بتناول الغذاء معهما فى كل يوم أحد .

و خشيتْ ((دورا)) فى بدء الأمر ((أنييس)) و لم ترتَحْ إلى لقائها ، و لكنها عندما تبيّنت من حديثها ما تكنّه جوانحها من صَفاء القلب و السّريرة ، مالت إليها و قالت لى و أنا أودّعها :

ـــ((ألا ترى معى يا «دافيد « أنه لو كان الدهر حبانى بصديقة مثل ((أنييس)) لكنت اليوم أحسنَ فكراً و أثْقَبَ رأياً !))

فتبسّمت أنا و ((أنييس)) و انصرفنا ، و كنت أتحرّقُ شوقاً إلى الانفراد ((بأنييس)) لأعرِف منها رأيها فى ((دورا)) فأثنت عليها الثناء الذى ما بعده ثناء ، و أطْرَت جمالها و فضائلها و سموّ نفسها ، فازدادت ((أنييس)) سموًّاً فى نظرى ، و أكبرت منها هذا الحكم المتجرَّد .

و عدنا إلى ((لندن)) و أوصلتها إلى منزلها ، و قفلت راجعاً إلى منزلى ، فنغَّص علىّ حبورى كتابٌ كان فى انتظارى ، و قد بعثت به إلىّ زوجة السيّد ((مكوبر)) فقرأته مَثْنَى و ثُلاثَ دون أن أستشفّ منه الحافز الأصيل لما تشكو منه و تتذمر ، فقد ذكرت لى فى كتابها أن زوجها لم يَعُدْ الإنسان المَرِح المغتبط الذى عرفتُه ، و أنه أصبح عابسَ الوجه ، مقطَّب الجبين ، يُخْفى عنها ما لم يُخْفِه عنها بالأمس من أمر معَاشه و رزقه و عمله ، و يقتِّر عليها فى نفقات الأسرة، و أنها تُهْرَع إلىَّ طالبةً منّى النصح و التوجيه فى كارثتها هذه .





٨

بلغت اليوم سنَّ الرُّشْد ، فعمرى الآن واحد و عشرون ربيعاً ، و قد روّضْتُ هذا الوحش الضارى الذى يسمُّونه الاختزال ، و أصبحِ موردى منه مورداً جليلاً ، و غدوتُ واحداً من اثنى عشر مختزلا عهدت إليهم صحيفة من صحف الصباح فى أن يلتقطوا بالاختزال مناقشات البرلمان لنشرها فى الجريدة .

ولقد حاولَ صديقى ((جاك)) غيرَ مرّة أن يحذو حذوى فما استطاع ، وأقرّ لى بعجزه ، واكتفى بأن يلتقط للجريدة بعض الأخبار، فيقدّمها إلى من هو أمهر منه فى الصياغة ، فيُلْبسها الأسلوب الصحفى الأثير .

غير أن موافاة الجريدة بالأخبار قد درَّ عليه بعض الرّزق ، فالتحق بمكتب أحد المحامين ، و وعده بأن ينقده الرسم المطلوب و قدره مائة جنيه ((و يختلف هذا الرسم باختلاف شهرة المحامى)) على دفعات متوالية .

لم أكتف بالأعمال التى أزاولها ، فأوحتْ إلىّ عزيمتى و مطامحى أن أدخل باب التأليف ، فقرعتُه مرتجفاً خائفاً ، و أرسلت أوّلَ مقالى إلى بعض المجلات فنشرته ، فتشجَّعت و داومت على الكتابة ، فدخل علىّ منها مورد لا بأس به ، و أصبحتْ جملةَ مواردى فى العام ثلاثمائة و خمسين جنيهاً ، و إنه مبلغ و حقَّكم لا يُسْتهان به .

انتقلنا إلى منزلٍ آخر ، و أقبلتْ ((بيجوتى)) لتُعْنَى بتنظيفه و ترتيبه .

إن مهمّة هذه المخلوقة أن تُعْنَى طول العمر بالتنظيف و الترتيب. لقد وعدتْ أن تسارع إلى هذا العمل يومَ أتزوّج ((دورا)) و ها هى ذى أحلامى تتحقق ، فتَرْضَى عمّة ((دورا)) بزواجنا ، و يحين موعد اليوم العظيم فتُزَفُّ ((دورا)) إلىّ فى محضر من الأحباب .

عِشْنا معاً هانِئَيْنِ سعيدَيْن ، و إن حفَّتْ حياتنا ألفُ مشكلة من مشكلات الخدم و الحياة المنزلية . و آثرتْ عمتى و عمتها أن لا تشاطرانا السَّكَن ، و أن تتركانا وحدنا عصفورين يتغنَّيان فى جنَّة الحياة ، و ينتقلان من غصن إلى غصن ، وكنا نحن الاثنين على جهل تام بمطالب الحياة المنزلية ، فاستبدّ بنا الخدم ، و سرقونا ما شاء لهم الاستبداد و السّرقة ، و كثيراً ما كنتُ

أختلف أنا و ((دورا))في الحكم على مثل هذه الشؤون ، فتغضب و تحنق و تتهمنى بالجفاء و الغلظة ، ثم نعود إلى إقرار السلام بيننا و هكذا دواليك . . .

أصبتُ شيئاً من النجاح فى محاولاتى الأدبية ، و كان قد مرّ على زواجنا عامٌ واحد ، فرأيت أن أهجر الاختزال و مصائبة ، وأتفرَّغ للتأليف ، فأصبحتُ أشْرِك معى ((دورا)) فى المطالعة فترضى بذلك على سأم ، و أقرأ لها صفحات كثيرة من ((شكسبير)) محاولاً بذلك أن أجنبّها الضجر من حياة العزلة التى تحياها حين أكون غائباً عن المنزل .

على أنّنى لحظتُ غير مرّة أن شيئاً ما ينخر فؤاد ((دورا)) ، أهُوَ حزنُها على والدها ؟ أم أسَفُها على النعيم الذى كانت ترتَعُ فى بُحْبوحته ؟ فبدَّلَتْها به الأقدار مسكناً متواضعاً ، و فرضت عليها القيام بتدبير شؤونه ، و لا لمثل هذا خلقتْ و لا عليه درَجتْ و نشأتْ ؟

و لم تنقطع عمّتى قطٌّ عن زيارتنا و معاونة ((دورا)) فى كَبْحِ جِماح الخدم و الضَّرب على أيديهم السَّارقة ، و كانت لا تسميَّها إلا ((الوردة الصغيرة)) فكان يحلو على سَمْعى أن أسمع عمّتى تناديها و تخاطبها بمثل : تعالى أيتها الوردة الصغيرة ، خذى هذا الكتاب يا وردتى الصغيرة، إن طعامك اليوم لذيذٌ شهىّ يا وردتى الصغيرة ، فلما تمكّن الدّاء من ((دورا)) لزمتنى الوساوس ، و خشيتُ أن يكون لتلك التسمية فألُها

السئ ، فلا تعيش زوجتى وحبيبتى أطول من عمر الورد .

و كثيراً ما كنت أحمل ((دورا)) بين ذراعَىّ ، و أنزل بها إلى الحديقة لتستنشق النسيم الرَّطْب ، فهالنى أحسّ جسمها يخفّ وزنه يوماً بعد يوم ، فغلبتنى الأحزان على أمرى ، و شعرت أنى أسير إلى بقعة مجهولة يغطيها الصّقيع ، فكان هذا الشُّعور الكئيب سبباً يملأ قلبى بفواجع الأتراح .

و جاءنى البريدُ ذاتَ يوم برسالة من السيّد ((مكوبر)) لم يَشْكُ فيها ضيقاً ماليَّاً بل شكا فيها من راحة الضمير التى فقدها أبدَ العمر، و كان أسلوب الرسالة نبيلاً ، و لكنه مَشَوبٌ بالغموض ، و كان يرجو منى فى ختامها أن ألقاه أنا و صديقنا ((جاك)) فى شارع كذا بعد أن عيَّن لنا اليوم و الساعة .

و ما كِدْتُ أنتهى من قراءة الرسالة حتى أقبلَ علىّ ((جاك)) فبادرته قائلاً :

ـ((لقد تلقَّيْتُ يا عزيزى « جاك « رسالة غريبة من صديقنا «مكوبر « .)) فقال :

ـ((و تلقَّيتُ أنا رسالة من زوجته .))

فتبادلنا الرَّسالتين ، فإذا الزوجة تشكو ممَّا سبق أن شكت لى منه فى رسالتها السابقة ، و لكنها تذكر فى هذه الرسالة أنها كثيراً ما سمعت

زوجها يقول إنه باع نفسه للشيطان ... و تذكر فى الختام أن زوجها مسافرٌ إلى ((لندن)) فترجو باسم الصداقة القد يمة أن يشترك ((جاك)) معى فى بذل المعونة لزوجها المعذَّب .

فكتبنا على الفور إلى زوجة السيّد ((مكوبر)) رسالة وقَّعنْاها نحن الاثنين ، و وعدناها بالقيام بما ترجو ، و قرّرنا أنا و ((جاك)) أن نذهب إلى الموعد الذى ضربه لنا السيّد ((مكوبر)) فوصلنا إليه متقدَّمين ربع ساعة و كان السيد ((مكوبر)) فى انتظارنا ، فلم يستقبلنا بالمرح الذى عرفناه عليه ، و إنما استقبلنا بوجه عابس قد ارتسم فيه عذابُ القلب ، فتأبَّط بيمناه ذراع ((جاك)) اليُسْرى وأخذ بيسراه ذراعى اليُمْنى و سار بنا قليلاً و هو يقول :

ــ((إن فى الطريق إلى القبر دُ روباً يتمنَّى المرء أن لا يجتازها أبداً..)) فقال ((جاك)) :

ــ((ما هذه الكآبة التى نراك عليها يا سيّد « مكوبر « ؟ فما عوَّدْتنَا قطُّ فى أشد الأيام بؤساً أن نراك حزيناً عابساً ؟))

فسكت و لم يجب ، و بعد هنيهة صمت سألته :

ــ((و كيف حالُ صديقنا « هيب « ؟))

فاصفرَّ وجهه اصفراراً شديداً و قال :

ــ((يا عزيزى « كوبر فيلد « لئن عددتَ هذا الرجل صديقك

لأرثِيَنَّ لحالك ! و لئن عددتَه صديقى لأسخرنّ من هذه الصّداقة ! ومهما تكن الأسماء و الألقاب التى يُنْعَتُ بها هذا الرجل فلن تخفى حقيقة حاله ، إنه ثعلبٌ ماكر بل إنه شيطان رجيم ... و اعذرنى إن أنا لم أتبسَّطْ فى ذَمَّ هذا الرجل الذى قادنى إلى الهاوية ...))

و أخرج من جيبه منديلاً مَسَحَ به جبينه و وجهه ، و طفق يبكى و ينتحب ثم قال :

ــ((إنى شقىٌّ بائس قد حَكَمَ عليه شعورهُ الإنسا نى أن يتألَّم و يتعذَّب .. لقد لقيتُ الآنسة «أنييس « قبل أن ألقاكما ، و أثنيت على ذلك المَلَك الطاهر ، بل على ذلك الكوكب السَّاطع فى ديجور الظلام، فاتركانى أهيمُ على وجهى فى فِجاج الأرض لعلّ الدُّودَ يأكل بدنى فأكفَّر عن ذنوبى فبل أن ألقى وجهَ ربَّى .))

و أشفقتُ من أن يتجمَّع حولنا المارَّة ، و يطول الوقت قبل أن يُفْضىَ إلينا السيّد ((مكوبر)) بما يشغل باله و يعذبه ، فاقترحت عليه أن نسير معاً إلى بيت عمّتى و نتمّم الحديث فيه ، و أخبرته أنها سيسرُّها التعرُّف إليه و إضافته تلك الليلة فى منزلها ، فقَبل وضمَّنا بيتُ عمّتى بعد قليل ، فقدَّمْتُه إليها و إلى السيّد ((ديك)) فرحَّبا به أجملَ ترحيب ، ثم عاد فأخرج منديله و طفق ينتحب فقلت له :

ــ((هوِّنْ عليك يا سيّد « مكوبر « و فَرِّج عن نفسك ، و أنْقِذْها من

ذلك السرّ الذى يبرَّح بك ، و أعلم أنك هنا بين نَفَرٍ من الأصدقاء.))
فقال و هو لا يزال ينتحب :

ــ((إن رأيتمونى على مثل هذه الحال من الضَّعْفِ و الخَوَر ، فلأنّى بين نَفَرٍ من الأصدقاء... تسألونى أن أبوحَ بالسرّ الذى يبرَّح بنفسى ، و كان الأولى أن تسألونى عما لا يبرَّح بنفسى ... إن عذاب نفسى ناشئٌ من القسوة و السَّفالة و التَّزْوير و الدّسائس ، ومجموع هذا الهَرَم من الرَّذا ئل يسمَّى « هيب « .))

فدقَّتْ عمتى يداً بيد ، و ارتجفنا جميعاً ، فاستأنف ((مكوبر)) حديثه و قال :

ــ((كلا . كلا . فما عدتُ أستطيع أن أغالب نفسى و أصارعها... و لا عُدْتُ أقْوَى على الحياة فى ذلك الصراع ...))

فاقتربتُ منه و مددتُ إليه يدى فابتعد عنى قائلاً :

ــ((لا . لا يا « كوبر فيلد « ! لا تمسّ يدى ... حتى يعوَّض على الآنسة « أنيبيس « و على غيرها من الناس الضَّررُ الذى ألحقه بهم « هيب « ذلك الثعلب الماكر ... أحتفظوا جميعكم جيّداً بهذا الذى أقوله : فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل ... و فى ساعة الغداء... عليكم جميعاً بدون استثناء ...حتى العمّة الجليلة و هذا السيّد الفاضل... أن تحضروا إلى منزلى فى القرية التى أقيم فيها ... فسوف تجدونى هناك و زوجتى

وستسمعوننا نتغنَّى بذكريات الأيام الجميلة الماضية ... و عندئذ أكشفُ القِناع عن « هيب « المجرم الأثيم ... فما عندى شئ أزيده على ما قلت ، و لا شئ أسمعه ... إن المجتمع يُثْقِل صدرى ، فسوف أهرب منه و أجرى وراء « هيب « ذلك اللصّ الخائن المجرم ! ...))

و على الأثر انطلق انطلاقَ السَّهْم إلى الشارع ، و تركنا حيارى مدهوشين مقطَّعى الأنفاس...

و فى اليوم الذى حدَّده لنا ((مكوبر)) كنا نحن الأربعة فى تلك القرية ، متوجّهين إلى منزل ((مكوبر)) و عندما اقتربنا منه اتضح لنا أنه يسكن فى جناح من مَبْنى هو مقرّ شركة ((ويكفيلد وهيب)) فى حين يسكن السيّد ((ويكفيلد)) و أسرته فى جناحٍ آخر من المبنى عندما ينزلون بتلك القرية ، كما يسكن فيه أ يضاً السيّد ((هيب)) إبَّان إقامته فيها .

وكان ((مكوبر)) فى مكتبه من الطبقة الأرضية منهمكاً كلَّ الانهماك ببعضِ الأعمال الكتابية ، فلمّا وصلنا إليه صحتُ بأعلى صوتى :

ـــ((كيف حالُك يا سيد « مكوبر « ؟)) فقال :

ـــ((بخير يا عزيزى « كوبر فيلد « .)) فسألته :

ـــ((هل الآنسة « أنييس ويكفيلد « فى المنزل ؟)) فقال :

ـــ((نعم إنها فى المنزل تُعْنَى بأبيها المريض ، و لسوف تُسَرُّ كلَّ السُّرور برؤيتكم . تفضّلوا بالدخول .))

و مشى ((مكوبر)) يتقدمنا إلى داخل المنزل ، ففتح الباب وقال بصوت جَهْوَرِىّ :

ــ((الآنسة « تروتوود » السيّد « دافيد كوبر فيلد » السيّد « جاك » السيد « ديك » .))

ورآنا « هيب » فدهش من زيارتنا المفاجئة ، ولم يقطِّبْ حاجبَيْه فما كان له حاجبان ليقطّبهما ، ولكنه جعَّدَ جبينه حتَّى صغُرَتْ عيناه ، وما هى إلا لحظة قصيرة حتى استعاد سكونه ورَباطةَ جَأشِه فقال :

ــ((ما أجملَ هذه المفاجأة ! بل ما أجملَ هذا العيد الذى يسرّنى بلقاء جملة من الأصدقاء معاً !))

ثم التفتَ إلىّ و قال :

ــ((كيف حالُ السيّدة « دورا » زوجتك ؟ أرجو أن تكون قد تماثلتْ للشَّفاء ... اللّه يعلم كم انزعجنا لمرضها .))

فقلت له متأدَّباً :

ــ((شكراً لك يا « هيب » على عاطفتك الرقيقة !)) و توجَّه بالكلام إلى عمّتى فقال و هو يبتسم ابتسامته الصفراء :

ــ((لقد مضى علىّ زمنٌ طويل لم أشْرُف بلقائكِ فيه يا سيدتى... منذ اليوم ا لذى كنت فيه أجيراً عند السيّد « ويكفيلد » ناظر المدرسة و وكيل أعمالك ... كل شئ قد تغيّر ، و لكنى أنا لم أتغيّر ...))

فقالت عمّتى :

ـ((لو شئتُ أن أكونَ صريحة لقلتُ لك إنك حقَّقْتَ كل ما كان يجيشُ فى صدرك أيام الشباب من مطامع .)) فقال :

ـ((أشكرك يا آنسة « تروتوود « .)) فقال ((جاك)) :

ـ((أرجو أن لا نكون قد أثقلنا عليك بزيارتنا و منعناك من العمل .)) فقال ((هيب)) :

ـ((كلاّ يا عزيزى ... إن زيارتكم حبيبةٌ إلينا ... إن العملَ كثيرٌ ضخم ، و لا سيّما منذ مرض السيّد « ويكفيلد « ، على أنه يسرنى و يسر معاونى السيد « مكوبر « أن ننهض به و نَرْعى مصالح السيّد « ويكفيلد « .))

و دخلت ((أنييس)) فى تلك اللحظة و لم تكن هادئة مطمئنّة كعادتها ، فحيَّتْنا و حيَّيْناها ، و أشار السيّد ((مكوبر)) فى هذه الأثناء إلى ((جاك)) إشارة خاصّة ، فخرجا معاً و عادا بعد قليل، وضاق ((هيب)) ذرعاً بذلك الخروج و تلك العودة ، و لم يتمكَّنْ أن يفهم سرّها فقال يخاطب ((مكوبر)) :

ـ((لسنا فى حاجةٍ إليك يا سيّد « مكوبر « فيمكنك أن تنصرف إلى عملك .))

فمضى ((مكوبر)) إلى الباب و وقف عنده لا يتحرك و لا يريم فقال

له ((هيب)) :

ــ((ماذا تنتظر ؟ أما سمعتَ أمرى بالانصراف إلى عملك ؟))

فقال ((مكوبر)) وهو جامدٌ فى موقفقه :

ــ((بَلَى سمعت .)) فقال ((هيب)) غاضباً :

ــ((و لماذا لا تمتثل لأمرى ؟)) فقال ((مكوبر)) و قد بدأ مِرْجَلُ السُّخْط يَغْلى فى صد ره:

ــ((لأنَّنى لاأريد الامتثال لأمرك .))

فاحْتُقِنَ وجه ((هيب)) ولكنه كظم غيظه وقال وهو يحاول الابتسام :

ــ((إنك رجلٌ مسكين ... و جميع الحاضرين يعلمون ذلك ... وأخشى أن تُحْوِجَنِى إلى طَرْدِك ... فاخْرُجْ و سوف ألقاك بعد قليل .))

فانفجر سُخط ((مكوبر)) انفجاراً عنيفاً و قال :

ــ((لو تجسَّدَ الإجرامُ فى هذا العالمَ لما تجسَّمَ إلا فى رجلٍ يدعى « هيب » .))

فتراجع ((هيب)) كمن لذَعَتْه أفعى سامّة ، و أجال طَرْفَه فينا جميعاً و قال يخاطبنا :

ــ((إنها إذن مؤامرة دَبَّرْتُموها ، و ضربتم موعداً لتنفيذها فى هذا المكان ... يا وح لى يا سيّد « كوبر فيلد « أنك تريد التواطؤ مع أجيرى و لكن حَذارِ ! فأنا أعرفك و أنت تعرفنى و كلانا يضمر للآخر الحقد

والبَغْضاء ... إنك تحسدنى على أن ارتفعتُ و أنتَ مازلتَ عالِقاً بالأرض ، فجئتَ تشترى أجيراً لى هو من حُثالة المجتمع ، كما كنتَ أنتَ فى ماضى أيّامك... أجل جئتَ تشتريه ليقذفنى بالتُّهَم و الأكاذيب ...))

و التفت إلى ((أنييس)) و مضى يقول لها :

ـ((بحقَّ حُبَّك لأبيك يا آنسة لا تنضمَّى إلى هذه العِصابة ، وإلا ألحقت بأبيك الخراب و الدَّمار !))

و تابع حديثه يخاطب ((مكوبر)) :

ـ((أقدِمْ يا « مكوبر « إنى ممسكٌ بك بين مخالبى ... و سوف أحطَّمك تحطيماً ، فابتعد فما زالت لك هناك فرصة للنَّجاة !)) فقال ((جاك)) فى هدوء و سكون :

ـ((هلاَّ خفَّفْتَ من غلوائك يا سيّد « هيب» ؟ !)) فقال ((هيب)) مَغِيظاً مُحْنَقاً :

ـ((و من أنتَ أيُّها الرجل لتفرض علىّ نصحك البغيض ؟))

فقال ((جاك)) بلهجةٍ خطيرةٍ هادئةٍ :

ـ((أنا صديق السيّد « ويكفيلد « ووكيله الشرعىّ ، و فى جيبى توكيلٌ منه يُبيحُ لى أن أتصرّف باسمه وبالنيابة عنه فى كل ما أرى من شؤون .))

و كان ((مكوبر)) قد اتّفق مع ((أنييس)) على أن تستكتب أباها ذلك التوكيلِ سرَّاً ، فلمَّا خرج هو و ((جاك)) من الغرفة دفع

به إليه وأفهمه ما يريد إفهامه . فقال ((هيب)) و قد جحظت عيناه و ازداد امْتِقاع لونه :

ــ((إذن لقد فَقَدَ ذلك الحمارُ الأبله صَوابه ، فانتزعتم منه ذلك التوكيل تزويراً و تدليساً .)) فقال ((جاك)) :

ــ((أعْرِفُ أن بعضهم قد انتزع منه أشياءَ تزويراً و تدليساً ، وأنت أعْرَفُ منَّا بذلك يا سيّد « هيب « فإن شئتَ كَلّفْنا السيّد «مكوبر« أن يوضَّح لنا المسألة .))

فأخرج ((مكوبر)) على الأثر من جيبه مجموعة أوراق مطويّة ، فنشرها و أخذ يقرأها بصوت جَهْوَرِيّ . و بعد أن استهلّها بوصف الضائقة المالية التى رمته بين براثن ((هيب)) قرأ ما يلى :

((دفعتنى يوماً الفاقةُ و الجنون إلى مكتب الشركة المعروفة باسم « ويكفيلد و هيب « و لم يكن يديرها فى ا لواقع إلا « هيب « ، و « هيب « وحده هو محرّك تلك الآلة ، و « هيب « وحده هو اللص المزوَّر .))

و تبدَّل وجه ((هيب)) من الصُّفْرة إلى الزُّرْقة ، فهجم يريد اختطافَ مجموعة الأوراق و تمزيقها ، فكال له « مكوبر « ضربةً أليمة من مِسْطَرةٍ كانت فى يده ، فرجع عنه مُرْغِياً مُزْبداً مهدَّداً ، فقال له ((مكوبر)) :

ــ((حَذارِ من الهجوم مرّةً أخرى وإلاّ دققتُ عنُقُك .))

فرجع عنه خصمه ، و ارتمى إلى أحد المقاعد مقفلَ العينين ،



و عاد ((مكوبر)) إلى القراءة ، و بعدفقرات كثيرة تفيض بالشُّعور الحيّ و بلاغة الأسلوب قرأ ما يلى :

((و إليكم التُّهم التى أوجهها إلى « هيب « .)) و مضى ((مكوبر)) يقرأ :

((و لمّا ضعفت قُوَى السيّد « ويكفيلد « العقلية ، لأسباب لا داعى إلى ذكرها ، اجتهد « هيب» فى إشاعة التعقيد و الفوضى فى كلّ أعماله ، و كلّما ازداد السيّد « ويكفيلد « ضَعْفاً و حاول أن يبتعد عن مزاولة الأعمال ، ازداد « هيب « إيعازاً له بمزاولتها ، ففى تلك اللحظات من الضَّعْف و الانحطاط الفكرى ، اضطرَّه « هيب« إلى التوقيع على وثائق هى على جانب عظيم من الخَطَر و الأثر ، موهماً إيّاه أنه إنَّما يوقِّع على أوراق تتعلّق بمسائل تافهه ، و وصل به الأمر إلى أن يستصدر منه ترخيصاً فى استعمال مبلغ كبير من المال كان وديعةً لديه ، زاعماً له كذباً و احتيالاً أنه سيدفعه إلى مصلحة المكوس و الضرائب ، ثم انتهى به الأمر إلى أن يسئ معاملة المريض، و يُخْضِعه لأهوائه و سلطانه ، و يفرض عليه تنفيذ ما يرغب .))

فصاح ((هيب)) قائلاً :

ـ((عليك يا « كوبر فيلد « أن تقيمَ الدَّليل على كل هذا ... ولكن صبراً فسوف نلتقى .)) فقال ((مكوبر)) و قد قطع القراءة :

ـ((يا سيّد « جاك « هل لك أن تسأل « هيب « عن دفترٍ لقيه فى مكتب السيّد « ويكفيلد « و استولى عليه ؟ و هل لك أن تسألَه عن

دفتر أحْرِقِ فى هذا المنزل ؟ فإن أجاب نعم و سألك عن رمَاد ذلك الدفتر فأَحِلْه إلى المدعو « مكوبر « يعلم منه أشياء لا تسرّه .)) و عاد ((مكوبر)) إلى القراءة :

((و َعَمَد « هيب « على ما ظننتُ و علمت إلى التزوير غير مرّة فى عدد من السجلات و الوثائق ، محاكياً توقيع ا لسيّد « ويكفيلد « و لا سيّما فى مسألة أستطيع أن أقدّم الدّليلَ عليها : مرض السيّد « ويكفيلد « و كان من المتوقّع لو مات المريض أن يضمحلّ نفوذ « هيب « على أسرته ، فسلب منه توقيعاً على وثيقة يعترف فيها بمبلغ هائل من المال اقترضه من « هيب» لينقذ به نفسه من العار ، فى حين أن ذلك كله كذب و افتراء ، و من العجب أن تلك الوثيقة مذيَّلة بتوقيع شاهد هو « مكوبر « .

هذا و تحت يدى جملة توقيعات زوَّرها « هيب « فى ا لدفتر الذى أحْرِق ، فبعضها مطموسٌ ، و بعضها ظاهر لم تأتِ عليه النار ...

و تحت يدى كذلك جميع ا لدفاتر و السجلات الخاصة بهذه الشركة ، فقد أخذتها من الصُّندوق الحديدى و أودعتها مكاناً أميناً إلى أن يطلب منى تقد يمها إلى النَّيابة و القضاء .

إنى فى حياتى كلها لم أكتب مثل هذا التقرير ، فهذا الذى قرأته صورة منه أما الأصل فقد دفعت به إلى السيد « جاك « .))

وما كان أشدّ دهشتى عندما رأيت عمّتى تهجم على « هيب «

وتُمْسِك بخناقه و تقول له :

ــ((أعِدْ إلىّ ثروتى أيُّها اللص ... عذراً يا « أنيبيس » فقد كنتُ سكَتٌّ على مَضَض ، عِلْماً بأن أباك هو المتصرَّف فى مالى ، و أن الحظّ خانه فى ذلك التصُّرف ، و لقد كتمتُ الأمر حتى عن « دافيد » و زعمت أنى صاحبة الرأى فى شراء أسهم تلك الشركة المفلسة ، أمّا و هذا اللصّ هو السارق ، فأريد استعادة ثروتى .))

و نظر إلىّ ((هيب)) نظرةً يتطاير منها شَرَرُ الحِقْد و قال :

ــ((و الآن ماذا تريدون منّى ؟ فقال ((جاك)) :

ــ((أن تقدَّم لنا أولاً العقد الذى نزل لك فيه السيد « ويكفيلد » عن جميع ماله ، و أن تعيد حتى البنس الأخير جميع ما سرقتَ و سلَبْتَ .)) فقال ((هيب)) :

ــ((دعونى أفكر .)) فقال ((جاك)) :

ــ((لا بأس ، و لكنك ستدخل غرفتك و لن تخرج منها حتى توافينا بقرارك الأخير . و سنحرسُ هذه الغرفة فلا تفكر فى الفِرار إلا إذا شئت أن يتولَّى رجالُ الشرطة هذه الحراسة عنّا .))

فأذْعَن ((هيب)) لرأى ((جاك)) ، فدخل غرفته و أقفلنا عليه الباب ، و أرسل ((مكوبر)) يدعو زوجته إلينا و رجا منا أن نشهد مصالحتهما ، فجاءت و معها جميع أولادها ، فتم عقد الصلح بين الزوجين ، و كنا

جميعاً شهوداً عليه ، و لما رأت عمّتى ذلك الجيش الجرار من الأولاد سألت ((مكوبر)) قائلة :

ـــ((لماذا لا تهاجر يا سيّد « مكوبر » إلى « أستراليا » بدلاً من أن تجرّر أثقال الحياة فى «إنجلترا » ؟)) فقال :

ـــ((لقد كان ذلك حُلْمِى فى عهد الشباب و ما زلت أحلم به ، و لكن المال هو الذى يُعْوِزنى !)) فقالت عمّتى :

ـــ((إنّنا مدينون لك بالشئ الكثير ، و لسوف نوفّر لك ذلك المال.)) فقالت زوجته تخاطب عمّتى :

ـــ((و هل حالُ ذلك البلد ممّا يسمح لرجل ممتاز فى مواهبه مثل زوجى ، أن يعلو فى السلَّم الاجتماعى ؟)) فقالت عمّتى ضاحكة : و قلّما تضحك :

ـــ((إنه البلد الذى يحتاج إلى مواهبِ زوجك و كفايته !))





٩

أكتبُ هذه السُّطور و أنا أذْرف الدمع السَّخِين على زوجتى ((دورا)) الوردة الصغيرة ، فبعد أن أعمل الداءُ سِهامه فى جسمها الغَضّ ، لفظتْ أنفاسَها بين ذراعى ((أنيبس)) و خلَّفتنى للهمَّ و الغمَّ و الحسرات ، حتى اسودَّتْ الدُّنْيا فى ناظرى ، و دَبّ اليأس إلى قلبى ، فأصبحت لا أرى الخلاص من دنياى المثقلة بالشُّجون و الأحزان إلاّ بالموت و سُكْنى القبور.

نصحونى بالسّفر التماساً للعَزاء و السُّلْوان ، و يغلُب على ظنىّ أن ((أنيبس)) هى التى أوحَتْ بذلك ، فقد لمسنا جميعاً منها فى أيّام محْنَتنا الكبرى محبّةً لا توصف ، لا تُذْكر إلا مشفوعةً بأجمل آيات

الشكر . ولست أ نسى كذلك صديقى ((جاك)) فقد غمرنى ببالغ حبّه ووِداده ، و شاطرنى الأسى ، و حملنى على الصَّبْر و التَّأساء .

و لَقد قرّرت السّفر نزولاً عند نُصْح النّاصحين ، و لكننى تمهلّتُ فيه حتى أشهد آخر فصلٍ من رواية ((هيب)) على حدَّ تعبير ((مكوبر)) ، و أشهد كذلك رحيل المهاجرين إلى ((أستراليا)) .

و فى صباح أحد الأيام ، رحلتْ قافلتنا المؤلفة منى و من ((جاك)) و من عمتى و ((أنييس)) إلى لقاء ((مكوبر)) ، فرحب بنا و أخرج من جيبه مفكّرة أخذ يقلب بعض صفحاتها ، ثم قال فى هدوء و رزانة :

ـــ((من حيثُ أن فريقاً من الأصدقاء ينصحننى بالهجرةإلى «أستراليا » فقد قبلتُ النصيحة ، و سوف أرحل فى أقرب وقت مستطاع ، و من حيث أن هؤلاء الأصدقاء و فى طليعتهم الآنسة « تروتوود » قد كفلوا لى نفقات السفر لُطْفاً منهم و فضْلاً ، فيسرّنى أن أقبل المبلغ على سبيل القَرْض ، على أن أفى به نَسِئيةً فى ثلاثِ دفعات : الأولى بعد ثمانية عشر شهراً ، و الثانية بعد سنتين ، والثالثة بعد سنتين و نصف سنة .)) فقالت عمّتى :

ـــ((افعل ما بدا لك ، وعد المبلغ قرضاً أو هبة ، فكلنا نازلون عند رأيك و رغبتك !))

فقال ((جاك)) :

ـــ((يسرّنى أن أعلن على رؤوس الأشهاد أن السّيد «مكوبر»

قد خدمنا و خدم الحقَّ و الإنصاف و العدالة خدمة جُلَّى ، و لا يفوتنى فى هذا المقام أن أشيد أيضاً بفضل السّيد ((ديك)) فمنذأن انهت مهمته فى حراسة « هيب « و الحيلولة دون فراره ، و هو يبذل الجهد الوافر فى رعاية مصالح السّيد « ويكفيلد « فأعاننا على البحث فى الدفاتر و السجلات ، و نَسَخ جميع الوثائق التى احتجنا إلى الحصول على صُوَرٍ منها ، و قام بكثير من المساعى الصغيرة التى سهَّلت علينا العمل .)) فقالت عمّتى :

ــ((إن السيد « ديك « رجلٌ ممتاز ، و كثيراً ما أطنبتُ فى الثّناء على مواهبه ... أتذكر ذلك يا « دافيد « ؟))

و لم يترك ((جاك)) لى الفرصة حتى أجيب عن سؤال عمتى مؤمنّاً على كلامها ، بل بادر إلى توجيهه الخطاب إلى ((أنيبيس)) و قال :

ــ((يُسْعِدنى يا آنسة « ويكفيلد « أن أنهى إليك أن صحة والدك قد تحسنت تحسناً ملحوظاً فى أثناء غيابك ، بعدما زال عنه عبء الهمَّ و كابوس المخاوف . و لكنّ أحواله المالية بعد كل الجهد الذى بذلناه فى استرجاع ما أمكن استرجاعه ، ليست على ما يرام ، فلن تترك له شيئاً يُذْكر بعد تصفية ديونه .)) فقالت ((أنيبيس)) :

ــ((حَسْبى أن يكون فى صحّة و سلامة ، و لسوف أعرف أن أوفّر له شيخوخة هانئة ، فأنا بَعْدُ فى مقتبل العمر ، و لن يضيرنى العمل و كسب رزقنا بعَرَق الجبين .)) فقال ((جاك)) يخاطب عمّتى :

ـ((و الآن يا آنسة « تروتوود « يجب أن نعنى برد ثروتك إليك.)) فقالت عمتى متنهدة :

ـ((إن كانت قد تبخَّرت فى ا لهواء ، فسوف أستسلم لمشيئة الأقدار ، و إذا كانت لا تزال فى حيز الوجود فيسرّنى أن أستعيدها.)) فقال ((جاك)) :

ـ((إنها فى حيَّز الوجود يا سيّدتى و قد استطعنا أنا و السيد «مكوبر « أن ننتشلها من براثن الذئب « هيب « فقالت عمّتى :

ـ((على بركة الله ! ذلك خيرٌ و أبقى ! و لكن ماذا جرى للذَّئب الضارى ؟)) فقال ((جاك)) :

ـ((كل ما أعرفه عنه أنه عاد إلى « لندن «)) فقالت عمتى :

ـ((حملته الأبالسة !))

ثم ابتعدنا نحن جميعاً عن السيّد ((مكوبر)) قليلاً ، و تداولنا معاً ، و قرّرت عمتى أن تنقده خمسمائة جنيه يستعين بها على سفره و على مزاولة نشاطه فى مَهْجَره .

و بعد أيّام قلائل كنا جميعاً على رصيف ميناء ((لندن)) نودع السيّد ((مكوبر)) و زوجته و أولاده ، و تشاء الأقدار أن يسافر معه على الباخرة نفسها شقيق ((بيجوتى)) و مَنْ حواه منزله ، فقد ضاق بهم الرزق فى الوطن فرحلوا يلتمسونه فى الأرض البعيدة . أمَّا الدموع الغِزار التى سكبتها ((بيجوتى)) فى وداع شقيقها فلن أنساها أبَدَ العمر .

ورحل المهاجرون ، و عُدْتُ أنا إلى الحزن و الأسى أجرَّر أثقالهما، فرحلتُ بعد أيام إلى إيطاليا و سويسرا أطوفُ منهما فى القرى و المدن و الجبال ، و أشغل نفسى من الصَّباح للمساء بالكتابة و التأليف ، فكتب قصةً استوحيتها من أحزانى و آلامى ، و بعثتُ بها إلى صديقى ((جاك)) فتولَّى نشرها ، و أرْدَفْتُها بثانية و ثالثة فاكتسبت من وراء ذلك مالاً و نلتُ شهرة واسعة وصل إلىّ صداها مع الركبان و جماعات السيَّاح . و استرحتُ قليلاً من عَناء التأليف ، ثم أقبلت على وضع قصّة طويلة ، و كنت قد وصلت إلى منتصفها عندما قرّرت العودة إلى إنجلترا بعد غياب دام ثلاثة أشهر .

نزلتُ من الباخرة فى ليلة من ليالى الخريف الباردة العاصفة ، و كان الظلام شِديد الحَلَك ، و المطر ينهمر كمن أفواه القِرب ، ولم يكن فى استقبالى أحدٌ من معارفى و أصدقائى لأنى كنت أبلغتهم أنى عائد _ عشيةَ عيد الميلاد ، فسبَّقْت عودتى لأسرَّهم بالمفاجأة .

و كنتُ علمت من رسائل ((جاك)) إلىّ أنه افتتح مكتباً للمحاماة باسمه ، و أن بعض المتقاضين قد عرفوا الطريق إلى مكتبه ، و أنه قد انتقل إلى مسكن جديد لائق لأنه يرجو أن يتزوج عن قريب ((بخير فتيات العالم)) و كنتُ علمت من رسائل عمّتى أنها عادت إلى قريتها ، و من رسائل ((أنييس)) أنها موفَّقة فى العمل الذى اختارته لنفسها و هو التدريس فى إحدى كليات البنات .



خرجتُ من الميناء فلم أجد مركبة تقلُّنى إلى حيثُ أشاء ، فوضعت حقائبى فى مخزن الودائع ، و سِرْت على قدمى إلى منزلنا فبدّلت ملابسى المبلَّة بالمطر ، و نزلت أسعى إلى منزل صديقى ((جاك)) .

توهَّمتُ أن ألقى المنزل الجديد اللائق الذى حدثنى عنه صديقى ((جاك)) فى حىّ متوسط من أحياء المدينة ، و على جانبٍ و لو متواضع ٍ من فخامة البناء مادامت الدنيا قد بسمت له ، و ما دام المتقاضون قد عرفوا الطريق إلى مكتبه ، و لكن حزّ فى صدرى أن أرى أن منزله الجديد اللائق هو من حيث الحىّ و البِناء ، فى المنازل التى لا ترقى إلى صفة التواضع ، و إن ارتقى درجة أو درجتين عن منزله القديم فى سلّم المجتمع ، فأدركت أن إقبال الدنيا على المحامى ، أمر تتقطَّع دونه الأعناق ، و يتطلّب عشرات السنين .

طرقتُ الباب ففتحه لى رجلٌ قصير القامة تدلُّ ملامحه على أنه يجمع بين وظيفة الكاتب و الخادم معاً ، فأوصلنى إلى صديقى ((جاك)) و كان جالساً إلى منضدة ازدحمت فوقها الأوراق و الوثائق ، و غرق هو بين أمواجها فرفع رأسه على صوتِ وقع الأقدام ، فما كاد يلمحنى حتى خف إلىّ معانقاً مقبِّلاً و صاح :

ــ((« دافيد » ؟ ما هذه المفاجأة السارّة ؟)) فقلت :

ــ((أكلُّ شئ معك على ما يرام يا « جاك » ؟)) فقال :

ــ((كل شئ على ما يرام .))

فعدنا إلى العِناق باكين من فرحنا باللقاء ، و عاد يقول :

ــ((ما أشدَّ سرورى بلقائك يا « دافيد « ! لقد أطلتَ علينا الغِياب ! اللّه فى هذه السُّمرة التى لوَّحَتْ وجهك !))

أمَّا أنا فقد انعقد لسانى بلقاء هذا الصديق الصدوق ، فما فُهتُ بحرف ردَّاً على سروره و فرحه ، فتابع هو الحديث قائلاً :

ــ((آه يا صديقى العزيز ... لقد أصبحتَ رجلاً طائر الشهوة ذائعَ الصيت ... و لكن متى وصلت ؟ و لماذا لم تنبئنى بموعد أوْبتك ما دمتَ قد عجَّلت فيها و رجعتَ قبل عيد الميلاد ؟)) فقلت :

ــ((يقولون :و ما أحلى زيارتها إذا جاءتْ بلا وعْد .)) فقال :

ــ((سامحك اللّه ... لو عجلت أياماً قلائل لكنتَ شهدت العُرْس.)) فقلت مدهوشاً :

ــ((أىّ عرس كنتُ شهدته ؟)) فقال متعجَّباً :

ــ((عُرْسى أنا . ألم تتسلم رسالتى الأخيرة ؟)) فقلت :

ــ((إذا كانت هى الرسالة التى تنبئنى فيها بعرسك فهذه و لا شك لم أتسلَّمْها .)) ثم أضفتُ قائلاً :

ــ((اِقبل إذن أصدقَ التهنئات من أوْفَى صد يق ... و لكن أين عروسُك .)) فقال :

ــ((هى هنا فى الغرفة المجاورة .)) و طفق يصيح بأعلى صوته :

ــ((« صوفى « ... « صوفى « هذا صديقى « دافيد كوبر فيلد « الذى طالما حدّثتك عنه قد عاد ... تعالى . تعالى .))

و أقبلتْ علينا شابَّةٌ حسناء فى ربيع العمر فحيَّيْتُها و هنأتها ، و بدا لى من حديثها و حركاتها أنها المرأة اللطيفة الذكيّة السعيدة ، فتمنّيت لهما أصفى الأيام و أحلاها فقال لى :

ــ((أرأيتَ أنت نفسك أنها « خير فتيات العالم « كما كنتُ قد ذكرتُ لك ؟)) فقلت :

ــ((إنها فوق ذلك ... لقد كذَّب الخَبَرَ الخُبْرُ ...))

فاحمَّرتْ وجنتا ((صوفى)) حياءً و سروراً ، و سر ((جاك)) أن يسمع منى هذا الإطراء و الثناء على عروسه المحبوبة .

و شددت الرَّحال فى اليوم التالى إلى دار عمّتى ، و نزلت عليها نزولَ الصَّاعقة ، و كانت تتناول الشاى هى و السّيد ((ديك)) و((بيجوتى)) العجوز الطيبة و قد أصبحتْ هذه مدبّرةً لمنزلها ، فاستقبلونى بالدُّموع و القُبَل .

و قضيت الليل أنا و عمّتى نتناجى و نتحدّث ، فأخبرتنى أن أخبار المهاجرين الواردة منهم تدل كلها على الرضى و الحبور ، و أن السيد ((ديك)) يقضى معظم وقته فى نَسْخِ كل ما تقع يده عليه ، و زادت على ذلك رأيها المعروف بأنه ما من أحد غيرها يستطيع أن يقدر السيد ((ديك)) حقَّ قدره ، ثم سألتنى :

ـــ((ألم تزر « أنيبس « ؟)) فقلت :

ـــ((كلاّ يا عمّتى ، فقد زرت ((جاك)) ليلة وصولى ثم سارعت إليك .)) فأخذتْ يدى فى يدها و قالت بلهجة رقيقة :

ـــ((كان عليك أن تزورها أوّلاً ما دامت غير بعيدة منك فى العاصمة ، فما عرفتُ فتاةً أصفى منها قلباً و لا أرجَحَ عقلاً ، و لا أصْدَقَ ودِاداً !))

و فتحتْ لى عمّتى بكلامها الرقيق و أخْذها يدى فى يدها و ثنائها على ((أنيبس)) آفاقاً جديدة من التفكير ، فسَرَحَ خيالى فيها و وقف عند فكرة رجعتْ بى إلى الماضى ، فقلت فى نفسى : لئن كانت ((أنيبس)) قد أحبتّنى محبَّة الشقيقة للشقيق ، لقد كان فى مقدورى أن أحوّل مجرى ذلك الحب ، و لكن اندفاع الشباب وثوران القلب الجامح ، قد صرفانى عنها إلى غيرها ، و أصَمَّا أذنى عن صوتِ قلبها ، بل عن تلميح عمتى فى بعض الأحيان .

و كانت عمتى تراقبنى و أنا مستسلمٌ إلى التفكير ، فالتزمنا كلانا الصمت قليلاً ثم قالت :

ـــ((سترى أباها عندما تزوره قد ازداد بياضُ شعره ، و لكنه صحيحٌ

سليمٌ مُعافى جسماً و فكراً ، و ستراها هى على ما عرفت من جمالها و حَنانها و طِيب عُنْصرها .))

فيا له من ثناء جميل على ((أنييس)) ! و يا له من عتابٍ مرًّلى ! يفهمنى أنى كنت قد ضللتُ السبيل ، فعادت عمّتى تقول و الدَّمْعُ يملأ عينيها :

ــ((إن الفتيات اللواتى تُعَلِّمُهُنَّ و تغرس فيهن مثل فضائلها ، سيكنّ و لا شك زهرات المجتمع .)) فقلت بصوتٍ عال و أنا أحسبنى أهمس فى نفسى :

ــ((ألم تصادف « أنييس « ...)) فقالت عمتى مقاطعة :

ــ((تصادف مَنْ ؟ تصادف ماذا ؟)) فقلت :

ــ((رجلاً يرغب فى تزوُّجها ...)) فقالت عمتى فى كبرياء المستنكر :

ــ((طلب يَدَها عشرات ... بعد رحيلك .)) فقلت :

ــ((لا شكّ فى ذلك ... و لكنها هل وجدت الرجل الذى يَليق بها ؟ فمثل « أنييس « تعرف أن تُحْسِن الاختيار .))

فسكتت عمتى هنيهة معتمدة ذقنَها بيدها ، ثم رفعت رأسها و قالت :

ــ((يخيَّل إلىّ أن لها حبيباً تؤثره على غيره .)) فقلت :

ــ((و هل يبادلها ذلك الحبيب الحبّ ؟)) فقالت عمّتى جادّة :

ــ((لا أعرف ، و ليس من حقّى أن أؤكد ما فُهْتُ به ، فما حدَّثتَنْى

بذلك قُّط ، و إنما هو أمر أتخيّلُه .))

ثم نظرتْ إلىّ نظرة الواجف القَلِق ، فأيقنتُ أنها توغَّلت فى أعماق نفسى ، ثم أنهينا الحديث و توجّه كلٌّ إلى غرفته .

و فى اليوم التالى رحلتُ عن القرية عائداً إلى العاصمة ، و ذهبت عند الأصيل إلى منزل ((أنييس)) و طلبت من الخادمة التى فتحت لى الباب أن تبلغ الآنسة ((ويكفيلد)) أن بالباب رسولاً من قِبَلِ صديق لها يطوف بالبلاد الأوربية ، فأدخلتنى إلى البَهْو ، و ذهبت تبلغ سيّدتها ، فمضيتُ إلى النافذة أسرَّحُ منها الطَّرْف فى المنازل المقابلة ، فلما أحسستُ الباب ينفتح ورائى ، ارتجفت كلُّ أوصالى ، فالتفتُّ فرأيتُ ((أنييس)) تنظر إلىّ نظرتها الهادئة الجميلة و هى واقفةٌ مضطربة فقلت :

ـ((عذراً يا « أنييس « إن أنا فاجأتك بهذه الزيارة .)) فقالت :

ـ((إنى سعيدة برؤيتك يا « دافيد « .)) فقلت :

ـ((بل أنا السعيد بالعثور عليك و لو بعد حين .))

فسكتتْ و سكتُّ برهة قصيرة ، ثم جلستْ و جلستُ إلى جانبها ، و رأيتُ فى وجهها الصبيح أسارير الفَرِح المغتبط ، و قسمات الشفيق الحنون ، فاختلجتْ جوانحى و عَصَتْنى الألفاظ حتى فتح اللّه علىّ فقلت لها :

ـ((حدثينى عنك يا « أنييس « كيف حالك و ماذا تفعلين ؟))

فقالت فىَ بْسمة الملائكة :

ــ((و ماذا تريدُ أن أحدَّثك عنه ... إن والدى و الحمد للّه فى صحة جيدة ... و مشكلاتنا قد تبدّدت ... و أنت أعْلَمُ منى بكل شؤوننا .)) فقلتُ متسائلاً :

ــ((بكل شؤونكم ؟)) فنظرتْ إلىّ فى شئ من الدَّهَش و الاضطراب فقلت :

ــ((أليس هناك شئٌ تفضِين به إلىّ يا شقيقتى العزيزة ؟))

فاختلف وجْهُها بين الصُّفرة و الحمْرة ، ثم تبسّمتْ تبسُّمَ الحزين ، و هزّتْ رأسها سلْباً ، و كان الغرض من سؤالى أن أمهِّد لها السبيل فى طَرْق الموضوع الذى حدّثتنى عنه عمّتى ، و إن آلمنى سماعه ، فلما رأيتُ اضطرابها عدلتُ عنه و قلت :

ــ((أعملك مرهق يا « أنيبس « ؟)) فعادت إلى سكونها و اطمئنانها و قالت :

ــ((لذَّةُ التدريس تجُبُّ المتاعب .))

و سرَّنى أن أرى فى هذه اللحظة والد ((أنيبس)) يدخل البهو، فسارعت إلى تحيته ، فغمرنى بأبلغ آياتِ الوداد ، و شَكَرَ اللّه على النعمة التى أسبْغَهَا عليه باسترجاع صحته و سلامته ، و أخذ يطنب فيما تحمّلته ابنته من مشاق فى العناية به و السَّهر عليه، ثم غادرنا إلى مخدعه فسألتنى ((أنيبس)) قائلة :

ـ((أتنوى القيام برحلة أخرى يا « دافيد « ؟)) فقلتُ و قد آليت أن لا أفاتحها فى أمر عاطفتى المتَّقدة ، خوفاً من أن أعود خائباً، فأفقد ما تحيطنى به من مودّة الشقيق .

ـ((و ما رأى شقيقتى فى ذلك ؟)) فقالت :

ـ((أرى يا « دافيد « أن تتفرغ للأدب ، فشهرتك و نجاحُك فيه حتى اليوم يحتّمان عليك الاستمرار فى الكتابة و التأليف ، و يسرّنى أن أسمع عنك دائماً أطيبَ الأنباء .)) فقلت :

ـ((أنا غرسُ يديك يا مَلَكى الحارس ، و لسوف أنزل دائماً عند نصحك و إرشادك . أتذكرين يوم زرتنى فى منزلى و كانت « دورا « على قيد الحياة ، فوقفنا معاً إلى النافذة و أريتنى السماء ؟)) فقالت و الدَّمْعُ يترقرق فى عينيها :

ـ((رحمها الله ! إنها كانت مثال الجمال و اللطف و الدّعة ، فكيف أنساها ؟)) فقلت :

ـ((لقد ردّدْتُ فى نفسى غيرَ مرّة ، أنك أرشدتنى دائماً إلى السماء ، و أنك قُدْتِ خطواتى أبداً إلى أهداف الكمال .))

فشكرتنى على حسن ظنّى بها ، و قالت إنها لا تستحقّ كل ذلك الثناء .

و ختمتُ هذه الزيارة بقلب أذكت فيه ((أنيبيس)) نار الحماسة

و النشاط ، فودّعتها محيياً شاكراً ، و انكببتُ منذ تلك اللحظة على القصّة الطويلة التى كنتُ قد بدأت كتابتها ، فأتممتها فى ثلاثة أشهر ، و كان وجه ((أنييس)) لا يفارقنى فى صباحى و مسائى، و فى غدوَّى و رَواحى ، ينفخ فىّ روحَ العزم إذا تعبتُ و كللت ، و يفتح لى مغالقَ الإلهام إذا جفّ خيالى و كبا فكرى ، و يوم نفضتُ يدى من القصّة ، و أرحت قلمى ، رضيتُ عن عملى ، و بعثتُ إلى ((أنييس)) على أجنحة النّسيم بأسْمَى عواطفِ الشّكران ...





١

مرّ على رجوعى إلى لندن نَحْوٌ من شهرين ، و اقتربنا من عيد الميلاد ، و لقيت ((أنيبيس)) غير مرة فى هذه الأثناء ، و توالى علىّ ثناءُ المعجبين ، و لكننى كنت أوثر عليه مديح ((أنيبيس)) و تشجيعها ، و عاد الحزن مع هذا يقرضُ بِنابِه جوانحى و فؤادى ، فكنت أحاربه بالعمل المُجْهد المُضْنى ، و بالاستسلام أحياناً إلى الرياضة .

و كنتُ إذا قرأتُ على ((أنيبيس)) بعض الصفحات مما أحبِّرُ و أدبِّج ، و رأيتها تُصغى إلىّ ضاحكةً حيناً و باكية حيناً آخر ، أو سمعتها تشترك فى هذا العالم الذى تخلقه يراعتى محتفيةً به مكترثة له ، علمتُ أية حياة كنتُ

أحياها لو تنبهّتُ فيما مضى إلى هذا الكنز الثمين ، و لكننى أدركت الأشياء بعد فوات الأوان ، و بعد تزوجى ((دورا)) ولات حين ندامة ...

و كانت عمتى تشاطرنى مثل هذه الأفكار ، و لكنها قد أمسكتْ عن العودة إلى الخوض فيها ، مدركةً ما يجولُ فى خاطرى و ما يحملنى على السكوت ، و كانت قد أقبلتْ إلى ((لندن)) منذ أيامٍ لتقضى فيها عيد الميلاد معى ، فرأتْ يوماً تِلالاً من الأوراق مكدّسةً فوق مِنْضدتى فقالت لى :

ــ((إنك لتقضى الساعات الطوال فى عنَاء التأليف ، و واللّه ما قَدَرْتُ قطُّ هذا العَناء أيامَ كانت القراءة تستهوينى إلا بعد أن رأيتك تعمل و تجدّ .)) فقلت لها :

ــ((قد يُلاقى القارىء أحياناً مثل هذا العناء يا عمّتى ، و كيفما كان الأمر ، فالمؤلف يجدُ فى عمله متُعْة و مسرّة .)) فقالت :

ــ((نعم ، متعةَ المجد و الشهرة ، و متعةَ أشياءَ أخَر !)) فقلت :

ــ((أتعلمين شيئاً جديداً يا عمّتى عما حدَّثْتنى عنه من غرام « أنييس » بفارس أحلامها ؟)) فحملقتّ فى طويلاً و قالت :

ــ((يخيَّلُ إلىّ أنى أعلم .)) فقلت :

ــ((أوَ ثبَتَ لك ما كنت تظنين و تتخيّلين ؟)) فقالت :

ــ((أجَلْ لقد ثبت لى يا « دافيد » !))

وأخذتْ تطالع فى أسارير وجهى المعانى التى تدور بِخَلَدى ، ثم قالت :

ــ((نفسى تحدَّثنى أن « أنيبس « ستتزوج عما قريب .)) فقلت :

ــ((باركها الله ، و كتب لها السعادة !)) فقالت :

ــ((نعم كتب الله لها ولزوجها السعادة .))

و شاطرتُ عمّتى دعاءَها و أمانيها ، و أوعزتْ إلىّ النفس أن لابُدّ لى من حديثٍ صريح مع ((أنيبس)) نضع فيه الأمورَ فى نِصابها ، فذهبت إلى زيارتها فى صباح اليوم التالى فألْفَيْتُها وحدها مستفيدة من عُطْلة الدراسة للانهماك فيما يحلو لها من المطالعات ، و كان كلام عمتى لا يزال يملأ خاطرى فأهَبْتُ بشجاعتى و أفضيتُ لها بمكنون صدرى ، و أسفر حديثنا عن صواب ما رأت عمّتى من قرب زواج ((أنيبس)) ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت ((أنيبس)) خطيبتى .

فذهبنا معاً إلى لقاء عمتى ، فأخبرتنى ((بيجوتى)) أنها فى مكتبى ترتِّب لى أوراقى ، فدخلنا المكتب و ألقيتُ نظرةً سريعة على مِنْضدتى ، فإذا هى بما حفلت به من أوراق و كُتُب ، على جانب عظيم من الترتيب و النّظام ، و إذا عمّتى قد غرقت فى مقعد طويل و فى يدها كتاب تطالعه ، و نظّارتَها فى منتصف أنفها ، فرفعتْ نظّارتَها عن عينيها ، و أخذت توزع نظراتِها بينى و بين ((أنيبس)) لعلَّها تستشفُّ من قسماتنا ما يحقِّق أمنيَّتها ، فما لقيتْ منّا

إلا وجهاً جامداً لا يُفْصِح عمَّا فى سريرتنا ، و كنتُ قد اتفقتُ و ((أنييس)) على هذا إمعاناً فى مفاجأة عمّتى .

و حضر السّيد ((ديك)) فى هذه الأثناء فتوجَّهْنا كلنا إلى المائدة لتناول طعام الغداء ، و انتظرتُ حتى فرغنا من الأكل و انتقلنا إلى البهو فقلت أخاطب عمّتى :

ـــ((نسيتُ يا عمتى أن أخبرك أنى حدّثتُ « أنييس « بما أنهيتِ به إلىّ من ظنونك .))

فاحمرّ وجه عمتيٍ ، و نظرتْ إلى شَزْراً ، فاستأنفتُ حديثى قائلاً :

ـــ((اطمئنى بالاً يا عمّتى فإن « أنييس « غير شقيَّةٍ بغرامِها.))

فازداد وجهُ عمّتى احمراراً كمن شعر بانهيارِ صرح أحلامه، فرأيت من صَواب الرأى أن أختم مداعبتى ، فأمسكت بيد ((أنييس)) و اقتربنا من مقعدها و ركعنا عندها ، ففهمت أنّنا خطيبان، فانهالت علينا تقبّلنا و تزجرنا حيناً على أننا كتمنا عنها هذا الخبر المفرح و لو ساعاتٍ قلائل . و أقبل علينا السّيد ((ديك)) و ((بيجوتى)) يغمراننا بالتهنئات و استسلمنا جميعنا إلى دَواعى الفرح .

و احْتُفِل بزواجنا بعد أسبوعين ، و شهده النخبة القليلة من أصدقائنا ، و لما خلونا أنا و ((أنييس)) معاً قالت لى :

ـــ((أما و قد أصبحت زوجى فأرى لزاماً علىّ أن أبوح لك بسرَّ

كنتُ غيّبْتُه فى صدرى .)) فقلت :

ــ((هاتيه يا حبيبتى !)) فقالت :

ــ((إنه سِرٌّ يرجعُ عهْدُه إلى الليلة التى انتقلتْ فيها « دورا » إلى بارئها . أتذكر أنها طلبت منك أن تأتى فتصحبنى إليها .)) فقلت :

ــ((نعم أذكر .)) فقالت ((أنيبس)) :

ــ((أخبرتنى أنها تترك لى بعدها أمراً من الأمور ، أتدرى ما هو ؟))

و حَسِبْتنُى حَزَرْتُ ذلك الأمر ، و لكننى التزمتُ الصمت ، فتابعتْ ((أنيبس)) حديثها و قالت :

ــ((طلبتْ منى أن ألبَّى رغبةً أخيرة لها .)) فقلت :

ــ((و ما هى ؟)) فقالت :

ــ((أن أجىء يوماً فأحلَّ محلّها عندك .))

و استسلمت ((أنيبس)) إلى البكاء و استسلمتُ أنا أيضاً إليه ، مع أننا كنا سعيدَيْن كلَّ السّعادة .

و توالت الأيّام و مرّ على زواجنا عشرُ سنوات ، فازددْتُ شُهْرةً و مالاً ، وَ رزقَنا اللّه بثلاثة بنين ، و كانت الهناءة مخيّمة على حياتنا .

و فى مساء أحد أيام الربيع ، بينما كنتُ أنا و ((أنيبس)) جالسيْن إلى الموقد و من حولنا أبناؤنا الصَّغَار يمرَحُون و يلعبون ، أُبْلِغْتُ أن غريباً يَرْغَبُ فى مقابلتى ، و يقولُ إنه آتٍ من سفر بعيد ، فسمحتُ بالمقابلة

فدخل علينا بعد قليل رجلٌ شيخٌ أبيض الشعر و لكنه مرفوع القامة قويّ الأجلاد فتبيَّنْته و خففتُ إليه على الفور أحيّيه و أرحب به و أقول :

ــ((أهلاً و سهلاً بالسيّد « بيجوتى « !))

و كان السيد ((بيجوتى)) ...

و بعد أن استتبّ به المقام ، و أجلس الأطفال الصَّغار على رُكْبتيه يداعبهم و يلاعبهم قال :

ــ((إنه ليومٌ سعيد أراك فيه يا سيد « كوبر فيلد « و أرى معك زوجتك الكريمة !)) فقلت :

ــ((وإ نى لسعيد جدَّاً بمرآك يا سيد « بيجوتى « .)) فقال :

ــ((و أرى هذه الزهرات الجميلة من أبنائك ... لم تكن أنتَ أكبرَ من كبيرهم يا سّيد «كوبر فيلد « عندما رأيتك لأوّل مرّة .)) فقلت :

ــ((لقد تغيرتُ أنا و كبرتُ ياسّيد « بيجوتى « أمّا أنت فلم تتغيّر و لم تكبر ، فما زلتَ على ما عرفتك عليه من القوّة و السلامة .))

و نادت ((أنيبيس)) المربية فذهبت بالأطفال إلى أسِرَّتهم بعد أن حيّونْا و قبّلناهم ، ثم التفتت ((أنيبيس)) إلى السّيد ((بيجوتى)) تسأله :

ــ((أجئتَ إلينا وحدك يا سّيد « بيجوتى « ؟)) فقال :

ــ((نعم يا سّيد تى . قطعت إليكم رُقْعةً واسعةً من البحار ، و لكننى لست غريباً عن الماء و لا سيما إذا كان مالحاً .)) فسألته ((أنيبيس)) :



ــ((أتنوى اجتياز هذه الرقعة الواسعة من البحار مرة أخرى .)) فقال :

ــ((نعم يا سيدتى و لكننى حرصتُ على رؤية السيد « كوبر فيلد » و رؤيتك يا سيدتى قبل أن يدبّ إلىّ العجز و الشيخوخة المُقْعِدة ، فما من شئ فى الحياة يعادل التَّمتُّع برؤية الأصدقاء الأوفياء الكرماء .))

ثم أخذ يقصّ علينا حياته فى ((أستراليا)) تلك البلاد النائية ، و عرفنا منه أنه لم يكتسب ثروةً طائلة و لكنه بحمد اللّه هانىءٌ ميسور، و أنه عمل جادَّاً جاهداً فكافأه اللّه على عمله ، فسمعت حديثه مغتبطاً و قلت له :

ــ((و الآن حدَّثْنا عن السّيد « مكوبر » و لعلك تعلم أنه وَفَى المبلغ الذى نَقَدناه إياه قبل سفره ، و أبى إلا أن يعدّه قَرْضاً ، فما من شك أنه على حال من اليُسْر و التوفيق .))

فمد السّيد ((بيجوتى)) يده إلى جيبه ، و أخرج منه حزمة أوراق مطويّة طيَّاً جميلاً و نشر منها صفحةً من جريدة و قال :

ــ((بدأ السيد « مكوبر » حياته هناك فى فِلاحة الأرض مثلنا ، و انتهى به الأمر إلى أن يصبح اليومَ قاضياً فى مدينة « أدلائيد » .))

فصحت مُعْجَباً :

ــ((أيجلس الآن فى مِنَصَّة القضاء ؟))

و أشار ((بيجوتى)) بإصبعه إلى أحد أ نهار الجريدة التى نَشَرها

من حزمة أوراقه ، و قدّم الجريدة إلىّ فقرأت فيها نبأ حفلٍ كبير أقِيم تكريماً للقاضى النزيه السّيد ((مكوبر)) شهده عليه القوم ، و ألقِيتْ فيه الخُطَب تمجيداً للمحتفى به و ثناءً على حَصافته و نزاهته و صائب أحكامه ، و أشارت الجريدة إلى أن المحتفل به قد شكر الحاضرين بخطاب بليغ تتألَّقُ فيه المعانى تألُّقَ أسلوبه الجميل، فشرب القوم نخبه و نخب زوجته الكريمة و نخب أبنائه ، و ما فيهم إلا كلُّ فتًى نابغ ذكىّ ، و كل فتاة حسناء تتحلَّى بجمال الخَلْق و كمال الخُلُق .

أدهشنى هذا كله و سرّنى ، ثم دلّنى السيد ((بيجوتى)) على نهر آخر من الجريدة قرأتُ فيه ما يلى :

((إلى « دافيد كوبر فيلد « المؤلف العظيم

لئن حرمتُ رؤيتك أيها الصديق الكريم طولَ هذه السنوات التى باعدت فيها بيننا الأيام ، و فصلتنا البحار الزّاخرة الهدّارة ، لقد سرنى أن أراك دائماً بعين الفكر و الخيال ، و أن أتتبّع نهوضك إلى المجد و العلا فى جناحَىْ نَسْرٍ قوىّ لا يحلّق إلا فى أعالى القمم، كما سرنى أن أنعم بهذه المآدب الفكرية التى أدَبها للناس أجمع قلمُك الفيّاض .

و إنى بلسان المهاجرين ، و بلسان الإنسانية جمعاء ، أبعث إليك مع صديقى و صديقك السيد « بيجوتى « الراحل إلى الوطن لفترةٍ قصيرة ، أصدقَ التحية ، و أسمى آيات الشكر ، و أبلغ الثناء على نبوغك و عبقريّتك .

ومهما ابتعدنا عن أرض الوطن ، فقلوبُنا معلقة به ، و نفوسُنا فخورةٌ بالنّابغين النّابهين من أبنائه ، فاستمرَّ أيها النَّسر العظيم فى تحليقك ، توفَّرْ للعالَمين عامة ، و لأصدقائك من سكان « أستراليا » خاصّة مطيراً جميلاً فوق سُحُب الفكر ، يتبعونك فيه على أجنحة المُتْعة و الفائدة و فيهم صديقك القديم

القاضى « مكوبر ».))

و استضفنا السّيد ((بيجوتى)) عندنا طول إقامته ((بلندن)) و لم تزد عن شهر ، و أقبلت عمّتى و شقيقة ((بيجوتى)) تزورانه و تتمتعان بلقائه ، و حينما قرّر الإبحار عائداً إلى مهجره ، و دّعناه أنا و ((أنييس)) و حمَّلْناه إلى أصدقائنا هناك عَطِرَ السلام .

* * *

تلك هى قصّتى ، فكلّما التفتُّ بعين البصيرة إلى الوراء قبل أن أختم هذه الصفحات ، رأيتُنى و ((أنييس)) إلى جانبى نتابع رحلتنا فى طريق الحياة ، و كثيراً ما أسمع على طول ذلك الطريق أصواتاً عزيزة علىّ .

و الآن و أن أكاد أفرغ من مهمّتى ، تجيش الذّكريات فى صدرى فلا أستطيع لها دَفْعاً ، و فى وسط السّماء التى تتألق فيها نجوم هذه الذكريات ، كوكبٌ ساطع يغمرنى بنوره السماوىّ ، إنه وجه مَلَكى الحارس وجه زوجتى ((أنييس)) .

و قبل أن أريح القلمِ التفتُّ إلى يمينى فوجدتها كعهدى بها جالسة إلى جوارى مشرقةَ الوجه بسّامة العينين ، إن المصباح يكاد ينطفىء ، و الفجر يكاد يلوح ، و ((أنيبيس)) التى لولاها ما كنتُ شيئاً مذكوراً ، جالسة فى صمت و سكون إلى جوارى يمدّنى حبها بالعزيمة ، و ينير لى وجهها الوضّاح سبيل الفوز و النجاح فى هذه الحياة ...



رقم الإيداع	١٩٩٩/٣٧٢٣
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5761-3

٧/٩٨/٧١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

أولادنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبـة المملـوءة بآيـات البطولة والشجاعة والإقدام.

صدر منها :

١ – عمرون شاه
٢ – مملكة السحر
٣ – كريم الدين البغدادى
٤ – آلة الزمن
٥ – الأمير والفقير
٦ – كتاب الأدغال
٧ – بينوكيو
٨ – نبوءة المنجم
٩ – روبن هود
١٠ – دون كيشوت
١١ – ايفنهو
١٢ – جزيرة الكنز
١٣ – كنوز الملك سليمان
١٤ – سجين زندا
١٥ – الزنبقة السوداء
١٦ – مون فليت
١٧ – مقبرة الأفيال
١٨ – الربان بلود
١٩ – تيودورا
٢٠ – أوليفر تويست
٢١ – دافيد كوبر فيلد
٢٢ – فى مهب الريح
٢٣ – الفخ الذهبى
٢٤ – عودة المحارب
٢٥ – حصان طروادة
٢٦ – نساء صغيرات
٢٧ – توم سوير
٢٨ – الأربعة الذين سرقوا الزمن
٢٩ – الربان الجرىء
٣٠ – العم نعناع
٣١ – أم حنان
٣٢ – كوخ العم توم
٣٣ – سميراميس
٣٤ – بامبى
٣٥ – صديقى فوق الشجرة
٣٦ – الطفلة المدللة
٣٧ – الأرض الغامضة